الغزو المغولي وأثره في الشعر

الدكتور خليل قاسم غريري*

الملخص

البحث محاولة لقراءة الشعر، ومعرفة موقفه من الحدث في حقبة مظلمة من تاريخنا العربي، بأسلوب مغاير للتقليد، وإن اقترب منه في بعض جوانبه، لأنه قرأ نفس الشاعر وعقله، ولم يكتف بالنظر بين السطور، ليصل إلى المغزى من تكلف الشاعر عناء النظم، لبيان أثر الغزو المغولي في الشعر العربي.

ولقد توقف البحث عند دلالات معنوية وفنية، أبرزت قصد الشاعر من رفع صوته، للتعبير تارة عن غضبه، وتارة أخرى عن حزنه ومرارته، فبدا رافضاً لأشكال الذل والخنوع، أو يائساً مستسلماً مهزوماً.

وهكذا تحرك البحث في اتجاهين، واحد مقاوم، عمل على رصد أسباب الهزيمة، فنادى بالصمود والتحدي، وحث على الجهاد، وتغنى بالشجاعة والشجعان، وطرب ورقص فرحاً للنصر على التتار.

وآخر آثر الصمت، ولاذ بالدمع، وتعلل بالأماني البائسة، وعاش على ذكريات الماضي السعيد، يجتر أحلامه، ويندب حظه وحظ أمته العاثر.

ويبين البحث أهمية هذه الأصوات، وأثرها في أدبنا العربي، وخاصة التيار المقاوم، ودورها في إغنائه بالمواقف الإيجابية في أحلك الظروف، وهي امتداد طبيعي للشعر النضالي في تراثنا العربي، الذي برز بصورة الفخر، أو الشعر الحماسي، أو المدحي.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

مقدمة

تعرضت الأمة العربية والإسلامية منذ نهاية القرن الخامس الهجري، لسلسة من المحن والمآسي والنكبات على يد الغزو الصليبي، كان لها أسوأ الأثر في الوجود الفكري والحضاري، وعانت بسببها احتضاراً دام عدة قرون، تخللته بوارق أمل ما لبثت أن حجبت وراء سحب كثيفة من الظلام واليأس، فها هي ذي سيول التتار القادمين من الصين سنة (٦١٧هـ) تكتسح بلاد المشرق العربي ، وإذا بالمصيبة أكبر من أن يحتملها بشر، أو يصدقها عقل.

كانت نكبة بغداد في القرن السابع الهجري (٦٥٦هـ) بداية السلسلة من المصائب، وأول منعطف خطير في تاريخ أمتنا العربية، فبها كتب أول فصل من فصول الفاجعة، وظهر سؤال كبير عن مصير الحضارة العربية في ظل وجوم ويأس كبيرين، وحقبة مظلمة من التاريخ، فالحدث مأساة حضارية، ودينية، ووطنية، خسر العرب -بوصفهم أمة- بسببه خصائص حياتهم، وميزات معالمهم الوطنية والفكرية والدينية والحضارية، لأن الفاجعة ليست فردية، إنها انهيار لصرح الحضارة العربية ومجدها التليد، ومن ثم الدخول في متاهة من الضياع والضعف .

بدأت الكارثة في تراثنا الأدبي، مع بدء طلائع الغزو المغولي، وسقوط المدن والبلدان بيد المغول، ودك الحصون والقلاع، فتحت عنوان(ذكر خروج التتر إلى بلاد الشام) قال ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ)، عند حديثه عن أحداث سنة (٦١٧هـ) (بلي الإسلام والمسلمون بمصائب لم تُبتلَ بها أمة من الأمم، فالتتر قبحهم الله – أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا وتخريباً وقتلاً ونهباً ،ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حد

العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم يـنج إلا الشريد النادر ، وهذا لم يسمع بمثله)[١]

وقد رصد الشعر فعل المغول بالناس و المدن ، فعبر بالدمع عن مشاعر الحزن والأسى، تجاه الأرض والإنسان والفكر والدين ، فالنكبة مست كل شيء ، مست الدين في معالمه الكبرى

(المساجد ، والمآذن ، والمحاريب ، وكل قيمه ومثله)، ومسـت معـالم العلـم والنور ، التي كانت مصدر إشعاع فكري ، وتحولت إلى رسـوم تـذروها الريـاح، ويعصف بها الجهل والفقر والظلام ، ومست الأرض التي درج عليها الشاعر فاحبهـا وأحبته وأعطاها وأعطته ، اختلطت بدمائه، وامتزج هو بظلالها وهوائها وهاهي اليوم تسحق تحت سنابك خيل المغول دون رحمة، وتتقاص أفياؤها شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح أثراً بعد عين.

وأخيراً نالت الإنسان ، الذي ذُبح كالنعاج، ونُكل به، وبأهله أبشع التنكيـل، فلـم يسلم الشيخ ولا الطفل ولا المرأة، الكل جزروا في مناظر تتقزز منها النفس البشرية ، وتقشعر الأبدان لبشاعتها ووحشيتها .

تلك مأساة هذه الأمة التي بكاها الشاعر بفيض من الدموع الحارة والعاطفة الصادقة ، التي تحكي قلوب الذين اكتووا بنارها، ومزقتهم شر ممزق ، قبل أن يقيض الله لها من ردوا كيد المغول إلى نحورهم ، بفضل نصر الله وتأييده لهم .

---

[١] ـ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ١٢/٣٥٨-٣٦١

طلائع الغزو المغولي ومخاوف الشعراء :-

بدأ الغزو المغولي سنة (٦١٧هـ)، وقد شمل مساحات واسعة من البلدان الإسلامية، إلا أننا لم نجد شعراً يناسب هذا الهجوم الكاسح ، كما حدث بعد سقوط بغداد، وزوال حضارة الخلافة العباسية سنة(٦٥٦هـ) ، وما جرّ معه هذا الزحف من ويلات على الأرض والإنسان. تُرى أألجم الشعراء أفواههم أمام هول الحدث حذر الموت؟ أم أذهلتهم الصدمة ، وأذهبت عقولهم، فأعيتهم عن الكلام ؟أم ضاع قسم كبير، لم يستطع المؤرخون جمعه وتنسيقه.

إن ما بين أيدينا قليل سجل طرفاً من أحداث الغزو المغولي، قبل زحفه إلى العراق، وهذا الغيض من الشعر، عكس خوف الشعراء وقلقهم على أنفسهم وبلدانهم، لأن حالة العرب وقتها لا تُبشر بالخير، بل تُنذر بسوء العاقبة. ففي سنة (٦١٧هـ) احتل التتر مراغة في أذربيجان، ثم تحولوا عنها إلى إربل، فخشي الخليفة العباسي الناصر ت(٦٢٢هـ)، أن يعدلوا عنها ويطرقوا العراق، فأشار على صاحب إربل مظفر الدين كوكبري ت (٦٣٠هـ)،وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ت(٦٥٦هـ) ، بالاجتماع في مدينة (دقوقا) لصد التتر، فسار العسكر، واجتمعوا هناك بأمرة صاحب الموصل ، ولكن لم يحدث قتال ، لانسحاب التتر، وعودتهم إلى بلادهم. فكانت هذه الحادثة أول تطلع للمغول صوب المشرق العربي ، وقد ذكرها الشاعر علي ابن مقرب العيوني (ت ٦٢٩هـ)، فمدح صاحب الموصل، ونسب إليه الفضل في انسحاب المغول وفرارهم، فحمى بفعلته هذه الدين والناس، فحل الأمن واليسر ، وترك غصة في قلوب الغزاة، الذين ردوا على أعقابهم خائبين. والمسألة لا تعد أكثر من استعداد للمواجهة، فلم يحدث قتل أو ضرب ، إنها معركة من نسج خيال الشاعر، قصد من ورائها مدح أمير الموصل ، لاستجابته السريعة لدعوة الخليفة، الذي استنجد به لشد أزره، فكانت لفتة الشكر هذه من الشاعر، الذي أرادها صرخة تحذير وتنبيه للخطر القادم من المشرق، يقول الشاعر، وفي قوله كثير من المبالغة : -

دعاه لنصر الـدين خــير خليفـة وما زال يـدعى للأمـور العظـائم
فلبى مطيعاً للإسـلام وحسبـه بذا فخـراً فـي عربهـا والأعـاجم

فقاد إلى الإفرنج جيشـاً زهـاؤه عديد الحصـا ذا أزمـلٍ وزمـازم
إذا التتر البـاغون ذاقـوا وبالـه تمنوا بأن كانوا دمـاً فـي المشـائم

هذا الجيش أذاب مرارة العدو، فبات يتمنى لو أنه لم يخلق، حتى لا يـذق طعـم الهزيمة وذلها. وتمضي الأيام والسنون، يتظاهر فيها المغول بالموادعة للبلاد العربية، إلى أن دخلت سنة

(٦٤٣هـ) ، حيث أقدم الأمير سليمان بن برجم البغدادي على قتل واحـد مـن شحن المغول في بعض قلاع الجبل ، فزحف عشرة آلاف منهم طلبـاً للثـأر بقيـادة بجكتاي الصغير ، فاستشعر الناس في بغداد الخطر ، فأرسل الخليفة المستعصم الجند إلى أطراف العاصمة بغداد بقيادة شرف الدين إقبال الشرابي ، الذي وحـد الصـف ، وعد العدة ، وأحسن الخطة لرد العدو ، بأمر من الـوزير محمـد بـن العلقمـي (ت ٦٥٦هـ) ، واشتجر القتال والتراشق بالنبال دون عراك مباشر ،صـمد فيـه جـيش الخليفة ، ولم يستطع المغول كسر شوكته ، ففروا ليلاً بعد أن أشعلوا نيراناً ضـخمة، لإيهام الجيش العربي ببقائهم ، وفي الصباح لم يجد الجند أحداً منهم[١]. خسر المغـول هذه المعركة لظنهم أولاً أن الخيام المضروبة على أطراف بغداد خالية كما أخبـرتهم عيونهم، وثانياً ثبات الجيش المسلم في أرض المعركة مع قساوتها، فانبرى ابن أبـي الحديد (ت ٦٥٥هـ) لمدح الوزير (محمد بن أحمد العلقمي) (ت ٦٥٦هـ) صـاحب الحنكة والرأي السديد ، وحسن التدبير ، ورباطة الجاش في ساحة الوغى ، فقال:- [٢]

---

[١] ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، ٢٣٩/٨- ٢٤٢
[٢] - المصدر نفسه، ٨/ ٢٣٩- ٢٤٢.

فرجت غمـــرتها بقلـــب ثابـــت ... فـي حملـة ذعـرى ورأي ثاقـــب
عمر الذي فـتح العـــراق وإنمـا ... سعد حسـام فـي يمـين الضـارب

يذكر الشاعر بفتح سعد بن أبي وقاص للعراق في عهد عمر ، والشيء بالشـيء يذكر ، لربط الحاضر بالماضي المجيد ، وإنعاش الذاكرة العربية، لنفخ روح المقاومة والتحدي في النفوس، وعدم الاستسلام للخوف من المغول.

وهنأ داود بن المعظم عيسى (ت ٦٥٥هـ) الخليفة العباسـي بالنصـرة علـى المغول، التي أشعرت الناس بالأمن بعد الخوف ، وحل اليسر بعـد العسـر، وحفـظ الدين، وهزم الشرك، فقال: [١]

تهن أميـر المؤمنـــين بنصـــــرة ... أتتـك من الله القدير عـــلى قـدر
لقيت ملوك الترك إذ جاء جمعـــها ... تجالد ديـن الله بالكـبر والكـــفر
وصـْلت عليهم صـــْولةً هاشميـــة ... أذاقتهم كأساً أمـــر من الصـــبر
فيا وقعة أهدت إلـى النـاس كـــلهم ... أماناً أعاد اليسر في موضع العسـر

تلك أول الأصوات الشعرية التي نافحت عن الحق قبل المحنـة، ودعـت إلـى الجهاد، وبث روح المقاومة في النفوس، فارتقت بأدبها إلى مستوى النبوءة. غيـر أن هزيمة العدو المبكرة، أسلمت الخليفة وبطانته، وجموع الناس للدعة والراحـة، فلـم يفطنوا للشر المتربص بهم وبحاضرة الخلافة بغداد، فها هـي ذي جيـوش المغـول تزحف صوب المشرق العربي، قاصدة رمز الخلافة، وهي أشد مضاء وعزماً علـى تدمير حضارة العرب والمسلمين، مستفيدة من حال العرب المزري، وما هم فيه مـن تخبط وفرقة وضعف، فتحركت الجيوش التترية، بقيادة هولاكو هـدفها بغـداد، بـل المشرق العربي كله، بعد أن قضى على مقاومة جلال الدين منكبرتي، وابن خـوارزم

---

[١] - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ٣٧/٩- ٣٨.

شاه، وطوع سلاجقة الروم فكان له ما أراد سنة (٦٥٦هـ)، وهـذا التـاريخ ارتـبط بأذهان الناس بما يعرف بنكبة بغداد، التي لم ينج من أوراها أحد، لا ملك ولا مملوك، كما وصف الشاعر شمس الدين الكوفي (ت٦٧٥هـ) بقوله:- [1]

يا نكبة ما نجا من صـرفها أحـد ‏ ‏ من الورى فاستوى الممـوك والملـك

تمكنـت بعـد عـز فـي أحبتنـا ‏ ‏ أيدي الأعادي فما أبقـوا ولا تركـوا

ومد المغول نظرهم إلى الشام، فغزوا حلب سنة (٦٥٨هـ) وسنة (٨٠٣هـ)، ونكبت بهم دمشق سنة (٦٩٩هـ) ، وسنة (٨٠٣هـ) ، ولم ينحسر مدهم إلا بعـد أن اصطدموا بسلاطين المماليك، فكانت الحرب بينهم سجالاً ، استطاع العـرب خلالهـا النيل من المغول في مواقع عدة.

وهكذا غدا المشرق العربي والإسلامي تحت رحمـة المغـول، الـذين أقـاموا مملكتين[2] الأولى: شملت الخرسان وعراق العجم الذي يعرف ببلاد الجبل ، والعراق وأذربيجان وخوزستان، وفارس وديار بكر وبلاد الروم ، وهذه المملكة ظلت في حالة عداء مع المماليك، والثانية :- أقيمت في بلاد القفجاق، وكان حكامها في حالة وئام مع المسلمين.

الشعر والحدث :

الشعر شكل من أشكال فن المقاومة، أي أنه أكثر الأنواع الأدبيـة قـدرة علـى امتصاص رحيق الكارثة ومقاومتها في حينها، ولا يتحدد هذا المعنـى فـي سـرعة الاستجابة الفورية من جانب الشاعر فحسب ، وإنما يتحدد في قدرة البنـاء الشـعري

---

[1] ـ عيون التاريخ ، محمد الكتبي، ٢٠/ ١٣٧.

[2]- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١٢/ ٣٦١.

على تمثل الحدث، واستيعابه في صورة مركزة قادرة على الوفاء بتجسـيد مشـاعر الفنان وأفكاره[1]

وقبل أن نتعرف إلى مواقف الشعراء من المأساة التي لحقت بالأمة العربية على يد المغول ،لا بد من وقفة نستعرض فيها أصداء الغزو المغولي في الشعر ، فـالجرح نازف بعيد الغور ، والهزيمة مرة قاسية ، والمشهد جد مأسـاوي، دمـار خـراب ، ونهب وسلب ، وسبي وموت .

بادئ ذي بدء نستطيع القول: إن الشعر كان أشبه بعدسة تصوير ، جسدت عينها الحدث بتجرد ظاهر، ولكنه لا يخلو من المشاعر الفياضة الحزينـة، فصـور المـدن الوادعة التي حولها المغول إلى مدن أشباح ينعق فيها البـوم، ومشـاهد القتـل دون رحمة، ومرأى العرض يهتك على رؤوس الأشهاد دون خجل، واحتراق منابر العلـم ومحاريب الهدى، وجعل المساجد والمعابد معاقل للدعر والسكر دون مراعاة لحرمـة الدين. كلها مظاهر تلخص سياسة التتار، التي لا تعرف سوى البطش، والجهر بالفسق والفجور، والقتل وسفك الدماء، والظلم والقهر والغي والضلال . ولابن عربشاه (أحمد بن محمد ت ٨٤٥هـ) قصيدة طويلة نظمها بعد هلاك تيمورلنك رأس المغـول سـنة (٨٠٧هـ)، تحدث فيها عن شخص تيمورلنك وصفاته ، ويبين أفعاله المنكرة ، بعد أن أعطاه الله ،الذي يعطي من يشاء ، ليرى فعل الإنسان بأخيه الإنسان ، وهو لا يخفـي فيها شماتته بموته، وفي الوقت ذاته يطلب اتخاذ العظة من سيرة هذا الطاغية وموته ، يقول ابن عربشاه :-[2]

---

[1] أدب المقاومة، د. غالي شكري، ص ٧.

[2] ـ عجائب المقدور في نوائب تيمور، أحمد الدمشقي، ص٢٥٤- ٢٥٩.

أملى له الله الحليم ... فزاد عدواً في فجور
الأعرج الدجال من ... قصم الجماجم والظهور
ليراه في إمضائه ... حكماً أيعدل أم يجور
فاجتاح كل الخلق من ... عرب ومن عجم ولور
ومحا الهدى وغدا الردى ... بحسامه الباغي يمور
أفنى الملوك وكل ذي ... شرف وذي علم وقور
وسعى على إطفاء نور ... الله والدين الطهور
بفروع جنكزخان ذا ... ك الظالم النجس الكفور
فأباح إهراق الدما ... من كل صبار شكور
وأحل سبي المحصنا ... ت المؤمنات من الخدور
ورمى على النار الصغا ... ر كأنهم فيها بخور
وأضاف في هذا إلى ... فعل الزنا شرب الخمور
فتكوا وقد بتكوا القـ ... ـلوب وبعدما هتكوا الستور
وشووا جباهاً طالما ... سجدت لدى الرب الغفور
وكووا جنوباً قد جفت ... طيب المضاجع والظهور
واستخلصوا الأموال من ... أيدي البرايا بالفجور

هؤلاء هم المغول، وهذه فعالهم الخسيسة ، تنبئ عنهم فلا هدف لحربهم إلا الفناء والهلاك للحجر والشجر والبشر ، والفساد في الأرض ، والقسوة في الفتك ، وهو أمر لم يعهد من قبل أي غازٍ في التاريخ القديم، فبخت نصر الذي قتل الكثير من بني إسرائيل ، وخرب بيت المقدس، لم يشكل فعله إلا جزءاً يسيراً إزاء ما فعل المغول بمدينة واحدة ،ويقال يقتل الدجال من يخالفه، ويبقي على من يتبعه، ولم ينج أحد من بطش المغول، حتى الأجنة في الأرحام، والاسكندر الذي ملك الدنيا لم يقتل أحداً، وإنما

رضي من الناس بالطاعة.

إنها طبيعة المغول الوحشية ، التي لا تعرف قيمة للمثل والأخلاق ، فهم شـعب جاف ، لا دين لهم ، يعبدون الشمس، ويسجدون لها عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، ولا يعرفون نكاحاً فالمرأة يأتيها غيـر واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه ، [1]ويقال إنهم لا يحتاجون في زحفهم لميرة, إذ يسوقون معهم الأغنام والبقر والخيل ، وغيرها من الدواب ، يأكلون لحومها ، ودوابهم التي يركبونها لضخامتها ، تحفر الأرض بحوافرها ،و تأكل عرق النبات ، ولا تعرف الشعير ، لذلك إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من الخارج.[2]

إذن طبيعة المغول هذه تفسر لنا سر همجيتهم ، وقسوة أفعـالهم ، التـي تشـيع الموت والخراب أينما حلوا ، كما حدث لبغداد وحلب ودمشق وغيرهـا مـن المـدن الإسلامية ، التي استباحها المغول ، فأصبحت أطلالاً بالية ، تذروها الرياح ، وتسـفي عليها الرمال.

نكبة بغداد (٦٥٦هـ) :[3]

---

[1]- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ،٣٨٥/١١ - ٣٦١

[2]- المصدر نفسه، ١١/ ٣٨٥- ٣٦١.

[3]- نزلت جنود التتار بقيادة هولاكو بغداد أواخر المحرم سنة (٦٥٦هـ)، وأحاطت بـدار الخلافـة يرشقونها بالنبال ، وكان قدوم هولاكو بنحو مائتي ألف مقاتل ، وهو شديد الحنق على الخليفة ، لأنـه أرسل إليه بشيء يسير من الهدايا ، فاحتقرها هولاكو الذي أحاط ببغداد، وكانت جيوشها بغاية القلـة والضعف ، بعد أن صرف معظمهم عن إقطاعاتهم ، فمال بجنده على البلد، فقتلوا من قدروا عليه مـن الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، حتى جرت الدماء في الطرقات كالأنهار ، وبعد أربعين يوماً مـن الاستباحة للمدينة، رحل هولاكو إلى مقر ملكه، وفوض على بغداد الأمير علي بهادر .
- البداية والنهاية ، ابن كثير،٢٠٠/١٣- ٢٠٣

ما إن دخل التتار مدينة بغداد ، حتى أعملو السيف في رقاب العبـاد ، وغـدت عرضة للنهب والسبي والحرق ، فتبدل وجهها الضاحك إلى عابس كالح ، وذهب عهد المودة والسلام ,وأيام العز والفخار ، وانطفأ نور العلم ، وأغلقت مجالس العلماء ، ولم يبق إلا الجدب والقحط ، والغم والكرب ، والحزن والأسى، الذي لف بغـداد بعبـاءة سوداء .

ويأتي صوت الشاعر سعدي الشيرازي (ت ٦٩٤ هـ) ، وهـو واحـد مـن الأصوات المنكوبة المكلومة ، ليحدثنا عن مأساة بغداد بحرقة ولوعة ، وقـد حـاول حصر ما ارتكب فيها من فظائع، ما لا نظير له في تاريخ الغـزاة ، فأعيتـه الحيلـة والصبر وخانته الذاكرة ، وعجزت الكلمة عن وصف الحدث ، لأنه أضـخم مـن أن تسعه قصيدة ، أو حتى ديوان شعر بحاله، يقول الشيرازي في ذكر ما جـرى لبغـداد :-[1]

تسائلني عما جرى يوم حصـرهم	وذلك مما ليس يدخل فـي الحصـر[2]
أديرت كؤوس الموت حتى كأنمـا	رؤوس الأسارى ترجحن مـن السـكر
محابر تبكي بعدهــم بسوادهــا	وبعض قلوب الناس أحلـك مـن حبـر
وقفت بعبادان أرقـب دجلـــة	كمثـل دم قان يسيــل إلــى البحـــر

عن أي أمر يسأل الشاعر ؟ وعن أي شيء يجيب ؟ أيتحدث عن القتلـى ومـا أكثرهم ؟ أيخبرنا عن الدماء التي أشكلت ماء دجلة ؟ أم يعلمنا عن فعل المغول الدنيء

---

[1]- المتنبي وسعدي، د. حسين محفوظ، ٧٣- ٧٧.

[2]- اختلفت الناس في كمية من قتل في بغداد من المسلمين في هذه الموقعة، فقيل ثمانمئة ألف وقيـل ألف ألف، وكان الرجل يستدعي من دار الخلافة، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه..... وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجمعـة والجماعات عدة شهور ببغداد.
البداية والنهاية ، ابن كثير، ١٣/ ٢٠١

بالعذارى العفيفات المحصنات في البيوت ، صاحبات الوجوه النيرة التـي لا تعـرف الشمس طلعتهن ؟ أيتحدث عن هتك العرض وكشف الســتر دون خجـل ورحمـة ، والحرة تصرخ ، وتستغيث ، ولا مجير ولا مصرخ ولا مغيـث ، لهـؤلاء النسـوة والأطفال من يد السفاح الذي يسوقهم سوق الغنم إلى نحرهم ، وهم في أزرى صورة وأذلها ...!؟

يصور لنا الشيرازي هذه الرؤى المحزنة المخزية في مشهد مأساوي مؤثر فـي النفس،

فيقول :-(1)

فليت صماخي صـم قبـل اسـتماعه بهتك أساتير المحارم في الأسـ ـ ـ ر
عدون حفاياسبسـبأ بعـد سبسـ ـ ب رخائم لايسطعن مشياً على الحـ ـبر
لعمرك لو عاينـت ليلـة نفرهـ ـ ـ م كأن العذارى في الدجى شهب تـري
ومستصـ رخ بـ ـاللمروءة فانصـ روا من يصرخ العصفور من يدي صـقر
يساقون سوق المعز في كبـد الغـلاة عزائز قـوم لا تعودن فـي الزجـ ر
جلبن سـبايا سـافرات وجوهـ ـ ـها كواعب لا يبرزن من خال الخـ ـدر

إنها صورة في غاية الروعة والدقة ، صاغها الشاعر بألم صـادق ، وعاطفـة حزينة ، لما جرى للحسان اللواتي شبههن الشاعر بالعصفور، كنايـة عـن رقـتهن وحسنهن وضعفهن،وهن بين يدي المفترس الذي شبهه الشاعر بالصقر ، وقد أنشـب مخالبه في جسم ضحيته الغضة الناعمة ، فأنى له النجاة أو الإفلات ، وأنى لأحـد أن يخلصه من هذه المخالب القاتلة .

ولقد أدرك الشيرازي الذي بدا أكثر وعياً وفهماً لحقيقة الغزو المغولي ، وذلـك بنبوءة الشاعر الملهم غاية التتار من زحفهم صوب المشرق العربي – بغداد بدايـة – فبغداد لم تكن أول مدينة يلتهمها المغول ، ولن تكون الأخيرة ، لذلك رأينا الشاعر في النص السابق الذي يطلعنا فيه على حال المدينة البائسة- وهو قصيدة طويلـة غلـب

(1) المتنبي وسعدي، د. حسين محفوظ، ص ٧٣-٧٧.

عليها النفس الحكمي – رأيناه يحذر من الخطر الداهم – المغول- وقد غلفه بأسـلوب الوعظ والحكمة، فما جرى لبغداد ، هو يقيناً جار على غيرها ، ولا أحد بمنأى عـن الخطر ، ولا بد من التفكر والتدبر في قادم الأيام ، وتقلب الدهر، والاعتبار بالموت ، والحرص على العمل الصالح ، والتمسك بأواصر الدين الحنيف ، والذود عن الأرض والعرض ، لدفع هذا البلاء العظيم الذي جرته علينا كثرة الأخطاء والمعاصي، يقـول الشيرازي في هذا المعنى :- [1]

رعـى الله إنسـاناً تـيقظ بعـدهم	لأن مصاب الزيـد مزجـرة العمـرو
وراءك يا مغـرور خنجـر فاتـك	وأنـت مطـاطٍ لا تفيـق ولا تـدري
كناقة أهـل البـدو ظلـت حمولـة	وإذا لم تطق حملاً تساق إلـى العقـر
ربحت الهدى إن كنت عامل صالح	وإن لم تكن والعصر إنك فـي خسـر

ويبدو أن نبوءة الشاعر سعدي الشيرازي كانت صادقة ، فبعد أن فرغ المغـول من دمار بغداد، توجهت أنظارهم نحو بلاد الشام ، فتعرضت حلب لغزو مدمر سـنة (٦٥٨هـ)، وتكرر ذلك الأمر سنة (٨٠٣هـ) ، ولم تنج دمشق الحضارة من بـراثن المغول ، فغزيت سنة (٦٩٩هـ) وتكررت بشاعة الغزو سنة(٨٠٣هـ).

نكبة حلب (٨٠٣هـ):[2]

يتكرر درس بغداد في حلب ، وهاهو ذا شاعرنا المجهول يقص علينا خبرهـا ، وهو حديث الرعب والموت والخراب والدمار ، والسبي والنهب ، وانتهـاك حرمـة

---

[1] ـ المتنبي وسعدي ، د. حسين محفوظ ، ٧٣-٧٧.

[2]- قصد هولاكو بجنده بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ ، فوصل إلى حلب في ثاني صفر، بعـد أن اجتـاز الفرات على جسور عملوها، فحاصرها سبعة أيام، ثم فتحوها بالأمان، وغدر بأهلها، وقتل منهم خلقـاً كثيراً،وامتنعت القلعة عليهم شهراً، ثم سلمت بالأمان، فخربت أسوارها وأسوار البلد.
النجوم الزاهرة، ابن تغري بردى، ٧٦/٧.
وسنة ٨٠٣هـ اجتاح تيمور لنك حلب، وحدثت بينه وبين أهلها معارك شديدة، استعمل فيهـا النشـاب والمنغوط والمكاحل، وانتهت بهزيمة عسكر المماليك، وفتحت المدينة وأشعل فيها النيران، فهرب الناس إلى جامع حلب، فتبعهم جند تيمور لنك، وشرعوا في الأفعال القبيحة، فصارت الأبكار تفتض من غير تستر بحضرة الجم الغفير، ولا أحد يقدر أن يدفع عنهم لما هو فيه من عذاب، واستمر النهب والسـبي والقتل من نهار السبت إلى يوم الثلاثاء ورابع عشر ربيع الأول، ويقـال عمـل تيمـور مـن رؤوس المسلمين عدة منائر؟ من الأرض نحو عشرة في دور عشرين ذراعاً.
- النجوم الزاهر/ ابن تغري بردى، ٢٢٢/٢- ٢٥.

المقدسات ، وإحراق بيوت الله وكتبه ، وهدم منارات العلم ومحاريب الهـدى ، إنهـا الصورة ذاتها لكل مدينة اجتاحها التتار ، ينقلها لنا الشـاعر والدمعـة فـي عينيـه ، والغصة في حلقه ، والألم يعصر قلبه ، وهو يرى مدينته وقد لحق بها وبأهلها الخزي والعار ، ولقيت من العنت والمشقة والظلم على يد المغول الكثير الكثير ، مما جعـل حياتهم غماً وكرباً ،وهماً لا يزول ، كما يقول الشاعر الباكي أطلال حلب ، وعذابات أهلها:- [1]

يا عين جودي بـدمع منـك منسـكب ... طول الزمان على ما حـل فـي حلـب
من بعد ذاك العلا والعز قـد حكمـت ... بالـذل فيـك يـد الأغيـار والنـوب
وأصبح المغـول حكامـاً عليـك ولـم ... يرعوا لجارك ذي القربـى ولا الجنـب
وبـدلوا مـن لبـاس اللـين ذا خشـن ... نعـم ومـن راحـة الأبـدان بالتعـب
وحرقـوا بيـوت الله معظمهـا ... وحرقـوا مابهـا مـن أشـرف الكتـب
كـذا بـلادك أمسـت وهـي خاليـة ... وأصـبحت أهلهـا بـالخوف والرعـب

مشاهد مقززة، يندى لها الجبين ، يصطنعها التتر دون خوف مـن عقـاب الله ، وفي الوقت ذاته مرعبة يشيب لهولها الولدان ، لم يجد الشاعر أمامها إلا الدعاء بقطع اليد الآثمة التي نالت من شرف الحرائر وكرامتهن ، أو أن يصـيبها الشـلل، فقـال الشاعر:-[2]

---

[1]- نهر الذهب، كامل الغزي،٣/ ٢١٥- ٢١٦.
[2]-المصدر نفسه، ٢١٥،٢١٦/٣.

لكن مصيبتك الكبرى التي عظمت ... سبي الحرائر ذوات الستر والحجب
يأتي إليها عدو الدين يفضحها ... ويجتليها على لاه ومرتقب
غلت يمينك يا من دها لسنا ... ذاك الجمال وشلت منك بالعطب

لم يجد الشاعر سوى الدعاء منبراً ، يلجأ إليه للتعبير عن غضبه مما رأى أو سمع ، وهذا أقصى ما يستطيعه ، لأن ما حصل برأيه قدر محتوم، خط في اللوح المحفوظ، وهو واقع لا محالة، وماله إلا الاستجارة بالله ورسوله لرفع الغمة عن الأمة، يقول:-

قضى وقدر هذا الأمر من قدم ... بحكم عدل جرى في اللوح والكتب
نسأل الله بالمختار سيدنا ... محمد ذي التقى والطهر والحسب
أن لا يرينا عدواً ليس يرحمنا ... ولا يعاملنا بالمقت والغضب

نكبة دمشق (٨٠٣هـ):-[1]

[1]-تواترت الأخبار سنة (٦٩٩هـ) بتوجه التتار نحو بلاد الشام، فتحرك السلطان محمد بن قلاوون إلى الشام، ووصل دمشق في شهر ربيع الأول، والتقى التتر في وادي الخزندار عند وادي سلمية يوم الأربعاء ٢٧ من ربيع الأول، فهزم المسلمون، وعاد السلطان إلى مصر، فتوجه الشيخ ابن تيمية للقاء سلطان التتار، لأخذ الأمان لدمشق، فخطب لغازان في يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر على منابر دمشق ، وعين قبجق نائباً على الشام ثم رحل غازان بعد أن ترك نوابه في الشام مع ستين ألف مقاتل من التتار، وأخذ معه مبالغ كبيرة تقدر بثلاثة آلاف ألف درهم، ثم جاءت الأخبار بقدوم العسكر المصري، فخرج التتار من دمشق ورحل أكثرهم عن الشام.
- البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/ ٦- ١١.
ولما فرغ تيمورلنك من حلب سنة ٨٠٣هـ ، توجه صوب دمشق ، والتقى المعسكر المصري في قطنا الذي صد المغول، ولم يقبل الصلح معهم، ثم دب الخلاف بين عسكر المماليك، فانسحب عدد كبير منهم إلى مصر، وتركوا دمشق لمصيرها القاتم مع تيمورلنك، فلما علم أهل دمشق بذلك أغلقوا أبواب المدينة، واعتلوا أسوارها للدفاع عنها، ففشل التتر بدخولها، فلجأ تيمورلنك إلى الحيلة، وطلب محادثة شخص حكيم، فأرسلوا له تقي الدين بن مفلح الحنبلي، فأخبره أنه يريد الرجوع عن دمشق، على أن يقدم أهلها من أنواع المأكل والمشرب والملبس طقزات، (أي تسعة باللغة التركية)، فجمع له ألف ألف دينار، فغضب تيمور وألزمهم بحمل عشرة آلاف دينار له ولعسكره، فلما تم له ذلك، أنزل بأهل الشام أشد البلاء، وغادرها بعد ثمانين يوماً وقد احترقت كلها.
- النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي، ١٢/ ٢٣٥- ٢٤٦.

تسقط مدينة دمشق لقمة سائغة بيد المغول سنة (٨٠٣هـ) ـ وكان غازان رأس المغول قصدها سنة (٦٩٩هـ)، ثم رحل عنها بعـد نهبهـا ـ ويحـل بهـا الـدمار والخراب، وتصبح المغاني والربوع موحشة مقفرة بعد أن ذهب عنها حسنها وبهاؤها ورونقها، ولم يسلم الجامع الكبير (المسجد الأموي) من عبث المغول، فانتهكوا حرمته، وعاثوا فيه فساداً، فشربوا الخمر في صحنه، وعربدوا بالنساء في سـاحته، ونهبـوا الذخائر،و أحرقوا الكتب، وهدموا المدارس ودور العلم، وحولوا المدينة إلـى خـراب بلقع، فبكى الشاعر بهاء الدين علي بن عبد الله الغزولي مدينة دمشق الزاهرة العامرة بالأنس والمسرة، بكى رياضها وحياضها، وتحسرعلى أيامها السعيدة الوادعة، فقال:[(١)]

لهفي على وادي دمشق ولطفـه	وتبـدل الغـزلان بـالثيران
لهفي عليـك منـازلاً ومنازهـاً	ومقام فردوس وبـاب جنـان
أسـفي علىأيامهـا لا ينقضـي	ما كان أهناهـا ومـا أهنـاني
أيام لا مـاء السـرور مكـدر	أرعى نضير العيش بل يرعاني

ويحاول الشاعر بعد نبرة الحزن والأسى أن يستحضر تاريخ دمشق العريق، ولا سيما أمجاد بني أمية من دانت لهم الدنيا بأسرها، فيتساءل أين هم أحفاد بنـي أميـة ؟ أين عين الوليد بن عبد الملك ترى فظائع المغول، وكأن قلوبهم قدت من الصخر، بـل هي أشد قسوة، يقول الغزولي: [(٢)]

[(١)]- مطالع البدور، علي الغزولي،٢/ ٣٠٠- ٣٠٣.
[(٢)]-المصدر نفسه، ٢/ ٣٠٠- ٣٠٣.

شربوا الخمور بصحنه حتى انتشـوا	ألقوا عرابـدهم علـى النسـوان
لم يرحمـوا طفـلاً بكـى فقلـوبهم	في الفتك صـخر لا أبـو سـفيان
لهفي على كتـب العلـوم ودرسـها	صـارت معانيهـا بغيـر بيـان

ويظهر من قراءة الحدث تمحور الشعر حول أمور ثلاثة، وهي. بكـاء المـدن، الدين، العرض. أما المظهر الأول فيجسد الحس الوطني لدى الشاعر، الذي عبر عنـه ببساطة وعفوية، من خلال إبداء التعلق بالوطن ، والحنين الجـارف إلـى الماضـي السعيد في ربوعه، والسؤال الذي يتردد على الشفاه عن الأحبة ، وما صـنعت بهـم الأيام والليالي. فنرى الشاعر علي السنجاري في رثائه بغداد سنة (٦٥٦هـ)، ويدعو لها بالسقيا، ويتساءل عن الصحب والخلان بحرقة وألم ممض، ويستنطق الديار علـى عادة غيره من الشعراء ، وقد سخر لهذا الغرض الأسلوب الإنشائي ، الذي أفاد منـه لتقصي خبر المغول وفعالهم في مدينته وأهلها ، فيكثر من استعمال صيغة الاسـتفهام (أين – هل)، و أسلوب النداء القريب والبعيد ، وبعد جملة من الاستفسارات عن الديار وقاطنيها، يختم الشاعر بالجملة الخبرية، التي تأتي كرد شافٍ على سؤاله الحزين عما حل بالمرابع ، التي ذوت، و غدت دوارس، بعد أن زال معها كل معلـم مـن معـالم الحياة، والوجود الحضاري والبشري ، وعلى الرغم من ذلك سيظل الشاعر على عهده بها، وفياً مخلصاً محباً لكل ركن فيها :- [١]

[١] عيون التواريخ ، محمد الكتبي، ٢٠/١٤١-١٤٢

دار الأحبـــة بـــالزوراء حيـــاك وجـــادك المـــزن هطاً ـــال ورواك
يا دار عهدي بشمل القـوم مجتمـع فـي سـاحتيك وبـدر الـتم يغشـاك
وأنت بالسـعد والإقبـال ضـاحكة فما الـذي أضـحك الشـاني وأبكـاك
فأين تلك النجـوم الزاهـرت لنـا تـرى الـذي كـان أبلاهـن أبـلاك
أجابت الـدار والأطيـار صـادحة فيهـا وكـل عليهـا نـائح بـاكي
أخنت عليهم صروف الدهر فافترقوا و أصبحوا عبـرة يحكـيهم الحـاكي

لقد ذهبوا وذهب معهم عزهم ،وذلوا ، وهانوا ، وشردوا ، ومضت أيام المجـد والمنعة. أسئلة كثيرة يطرحها الشاعر السنجاري ، الذي بنى قصيدته السـابقة علـى غرار إيقاع قصيدة الشريف الرضي ورويها، مع اختلاف في الغرض فواحدة غزلية، والأخرى في الندب والبكاء، ومطلعها [1]

يا ظبية البان ترعى فـي خمائلـه ليهنـك اليـوم أن القلـب مرعـاك

وفي المحور الثاني – الدين- أظهر الشعراء غيرتهم على الدين ، ودعـوا إلـى العودة إلى قيمه، والتمسك بأهدابه ، وأشاروا إلى أن الابتعاد عن الدين كان واحداً من أسباب المحنة ، ومن ثم اتهموا المغول بالكفر والإلحاد والضلال ، إنهم أمـة كـافرة جاءت لمحاربة الدين الحنيف ، وهدم أركانه., فحرب المغول كانت دينية في جانـب كبير منها ، وقد دلت الشواهد السابقة التي سقناها على ذلك ، وعبـر الشـعراء عـن خوفهم على عرا الدين ، كصوت الشاعر شمس الدين الكوفي بعد سقوط بغـداد سـنة (٦٥٦هـ)، الذي رأى في زوال الخلافة العباسية موتاً لكل القيم والمثـل ، ومعـاني الهدى والإيمان، فقال :- [2]

[1] ديوان الشريف الرضي،٩٣/٢.
[2]- فوات الوفيات ، شاكر الكتبي ، ٤٩٧/١-٤٩٨.

فلبعدهم قرب الـردى و لفقـدهم فقـد الهـدى و تزلـزل الإسـلام

لذلك كان الشعراء بعد كل نصر على التتار ،يرون فيه نصراً مـؤزراً للـدين ، وصوناً له، ودفاعاً عن حماه كما أشار الشرف الأنصاري(٦٦٢ هـ) بعـد وقعـة حمص (٦٥٩هـ) [١]،وهزيمة خربندا التتري في موقعة الرستن ، في معرض مدحـه للمنصور صاحب حماة، يقول الشاعر:-

لما شكا ديـن الهـدى أشـكيته بشـديد بأسـك والسـلاح الشـاكي [٢]

ورأى أبو الفداء صاحب كتاب (تاريخ حمـاة) بعـد معركـة عـين جـالوت (٦٥٨هـ)، التي حقق فيها القائد قطز نصراً مظفراً على المغـول ، رأى فـي هـذه المعركة بعثاً جديداً للدين الإسلامي، وهلاكاً للكفر، ولكل من أرادوا أن يطفئوا نور الله ،((والله متم نوره ولو كره الكافرون))[٣]،

يقول :

هلـك الكفـر فـي الشـام جميعـاً و اسـتجد الإسـلام بعـد دحوضـه

برز الأثر الديني عياناً في الشعر إثر الغزو المغولي ، دلت عليه إشارات معنوية متعددة ، أفادت من التراث الديني بشكل خاص، (فالنصر من عنـد الله ، والملائكـة تحارب إلى جانب المسلمين – والقائد مؤيد من قبل الله ، ومفوض من لدنه ، وهو ظله في الأرض ، وهو يتحلى بخصائص دينية كثيرة ، وهمه الكبير الـذود عـن الـدين وصونه).

---

(١)- أخذبيدرا أحد نائبي هولاكو على الشام في جمع فلول التتر بعد هزيمته في عين جالوت ، فاجتمع له ستة آلاف مقاتل ، فسار بهم إلى البيرة وحلب وحماه ، واجتمع في حمـص ملكهـا وملـك حمـاة بجنودهما ، فهزم المسلمون التتار يوم الجمعة خامس من المحرم سنة ٦٥٩هـ ، على الرستن .

- السلوك، المقريزي،٤٤٢/١.

(٢)- ديوان الشرف الأنصاري ،٥٥٧/٥٥٦

(٣)- (الصف٦١) .

والأمر الأخير الذي شغل بال الشعراء ، وأثار حفيظتهم ، هتك العرض بطريقة ربما عفت الحيوانات عن فعلها ، وتلك مسألة في غاية الدقة والحساسية للمرء (العربي خاصة)، وما عادة وأد البنات في الجاهلية التي نـزل فيهـا قولـه تعـالى: ((وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت)) [1]،إلا لارتباطها بمفهوم الشرف والعزة والكرامـة في الذهن العربي ، فالمرأة (أم – زوجة –أخت – قريبة) ، تمثل شـرف العربـي وعرضه ، فإذا مس هذا العرض بسوء ، جلل ذووه بالخزي والعار . وقد عبر معظم الشعراء إثر الغزو المغولي لمدنهم وقراهم عن سخطهم تجاه ما اقترفه المغول بحـق الغواني الحسان ، ربات الخدور ، وتفاوتت ردود فعلهم من هذا العمل ، فرأينا شاعر حلب المجهول يدعو على المغول بالموت ، وشل اليد التي مـدت إلـى المحصـنات وبترها، يقول [٢]

غلت يمينك يا مـن مـدها لسـنا   ذاك الجمـال وشـلت منـك بالعطـب

وتمنى سعدي الشيرازي فقد سمعه وبصره ، قبل أن يرى أو يسمع بمـا جـرى للعذارى، فقال[٣]:

فليت صماخي صم قبل استماعه   بهتـك أسـاتير المحـارم فـي الأسـر

وفضل اسماعيل التنوخي (ت٦٧٢ هـ) الموت حتى لا يلبس ثياب الخزي والعـار ، لما فعل بنساء بغداد، فقال[٤]:-

---

[١]- (التكوير٨١)

[٢]- نهر الذهب، كامل الغزي،٢١٦/٣.

[٣]- المتنبي وسعدي،د. حسين محفوظ، ص٧٥.

[٤]- النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي،٥٢/٧.

ناديت والسبي مهتـوك يجرهـم إلـى السـفاح مـن الأعـداء دعـار
وهم يساقون للموت الذي شـهدوا المـوت يـا رب مـن هـذا ولا العـار

ولم تكتمل الصورة بعد ، بقي لنا تعرف رد فعل الشعراء ، تُرى أَقبل الشـاعر برصد الحدث فقط ؟ وهل اقتصر فعله على ندب الأطلال وبكائها ؟ أم صمت ، وابتلع جراحه ، وطمس عينيه، وأغلق سمعه ، حتى لا يرى ما يجري ، ولا يسمع بما حدث ؟ أسئلة كثيرة تسلم قارئ الشعر في أثناء الغزو المغولي لبلاد العرب والمسلمين إلـى مسلكين لا ثالث لهما , الأول مقاوم ساخط ، متمرد رافض للهزيمـة وأسـبابها ، داعٍ للجهاد،ونبذ التخاذل والضعف، والاستسلام للبكاء .وألفاظ هذا الاتجاه ومعانيه مشحونة بطاقة كبيرة من التحدي والإصرار على المقاومة ، والأمل بالنصـر علـى العـدو ، والمسار الثاني ، انهزامي مستسلم للموت ، ودواعي الضعف ، غارق في بحر من الدموع وجو من الكآبة واليأس والوجوم ، وألفاظه مملوءة بمفردات الوحشة والوحـدة والغربة ،والحزن والشجا والأسى.

وسنحاول قراءة دلالات هذه المعادلـة ، (المقاومـة – الانهزاميـة)، الغنيـة بالمعاني والرموز والإشارات ، وتحليلها بقدر ما تسمح لنا الشواهد التي عثرنا عليها ، وبالصوت المقاوم نبدأ.

الصوت المقاوم :-

حفل تاريخ الشعر العربي بنماذج من شعر البطولة والمقاومـة[١]، إلا أن هـذا الشعر ارتدى زيه التاريخي الخاص به ، إذ عرف بشعر الحرب والحماسة والفخـر .

[١]- جدل الشعر والثورة، نزيه أبو نضال،ص٧.

وقد أدرك الشاعر بحسه الشعري قيمة الكلمة ودورها في الذود عن حياض الـوطن ، ومبادئ الدين ، ومنابر العلم ، ومكارم الأخلاق والفضائل ، وقيم الحضارة و صواها، التي تعارف إليها الناس منذ الأزل ، وتربوا عليها ، فكانت الكلمة عنـوان الـرفض للجوانب السلبية كلها ، وغدت تحتل ضمير الأمة وتلك مسؤولية تحملها الشعراء مـن غير وهن ، لأن الواجب الذي يفرض نفسه على كل كاتب يريد أن يبلغ الـذرا ، أن يجهد في التغلب على عزلته ، وعلى دوره كمراقب ومشاهد محايد ، فعظمة الشـاعر الحقيقية تنبثق من التطابق بين أدبه وأهداف أمته[1].

لذلك رأينا أدباً يحث على الجهاد والمصابرة ، ويتخذ مادته مما فعله التتار فـي البلاد المفتوحة من ألوان التدمير وسفك الدماء ، ورأينا أدباً يمثل قوة الإرادة أمام هذا الغزو ويتحداه [2]. وأول عمل قام به الشعراء بيان أسباب الهزيمة ، التي حمل عبئهـا بالدرجة الأولى أولو الأمر الذين تعرضوا من قبل الشعراء للنقد والتجـريح ، بسـبب سياستهم المتخاذلة , وأساليبهم الملتوية في الإدارة ، التي أدت إلى ضياع هيبة العرب والمسلمين وحضارتهم وكرامتهم .

أسباب الهزيمة :

تناول الشعراء الأسباب التي أدت إلى هزيمة العرب والمسلمين بسرعة مذهلة ، وهم أهل حضارة وعلم وتراث عريق ، على يد أمة همجية – المغول -، فتحدثوا عن سياسة الحكام بجرأة قل نظيرها في أدبنا العربي ، ولا سيما بعد الهزائم التي مني بها العرب ، وعبروا عن غضبهم من الخليفة وبطانته الفاسدة في قصائد ملتهبة غضـباً , ومملوءة وعيداً ونذيراً ، لأنهم أسلموا الأمة والدين للعدو وخذلوهما ، لاستعدائهم على شعوبهم ، وإذلالهم لهم ، وظلمهم وقهرهم للناس .

---

[1]- دراسات في الواقعية الأوروبية، لوكاتش،١٦

[2]- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، أحمد بدوي،ص ٥٥٨.

تتفاوت أسباب الهزيمة عند الشعراء , فهي ذات بعدين ، بعد دنيـوي أي بفعـل الإهمال البشري, وبعد ديني , قدري ، خط في اللوح المحفوظ سـابقاً ، وقـد تكـون مختلطة في الفهم عند الشاعر الواحد ، وربما ظلت ترى من جانب واحد (دنيـوي – ديني) .

البعد الدنيوي :

يمكن أن نرجع الهزيمة إلى جملة من العوامل أهمها:- الطمع والجشع – الفساد السياسي والأخلاقي والديني ، الخيانة والتخاذل عن الدفاع عن الأرض .

الطمع والجشع :-

جاء في التاريخ أن السلطان (خوارزم شاه محمد) ، دفعته أطماعه الشخصـية للاستيلاء على البلاد , وقتل ملوكها وإفنائهم ، ليخلو له سلطان البلاد جميعها ، فلمـا انهزم أمام التتار لم يكن في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها من زحف المغول [١] .

الفساد السياسي والأخلاقي والديني :-

تعالت الأصوات الساخطة على أولي الأمر بعد سقوط بغـداد ، وعملـت علـى كشف زيف أهل الحكم ، وضعفهم ، وفسادهم السياسي والديني والأخلاقي ، فقد ذكـر ابن كثير في تاريخـه أن الخليفـة العباسـي كانـت تـرقص بـين يديـه جاريـة اسمها(عرفة)،أصابها سهم فقتلها ، فحزن لموتها، وأمر بزيادة الاحتـراز ، فكثـرت الستائر على دار الخلافة[٢]. التتر على أبواب بغداد ، وسهامهم تغزو قصر الخليفـة ، ولا يصدر عنه إلا أمر هزيل ، يقضي بإحكام إغلاق النوافذ !

---

[١]- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ٣٥٨/١٢-٣٦١

[٢] - البداية والنهاية ، ابن كثير ،٢٠٠/١٣

والأدهى والأمر من هذا تسريح الجيش بأمر الخليفة ، وجعله فقيراً ، استجابة لرأي فاسد من الوزير ابن العلقمي ، قال ابن كثير : (وجيوش بغداد في غاية القلة ، ونهاية المذلة ، لايبلغون عشرة آلاف فارس ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعتهم ، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأمام أبواب المساجد)[١]. والتتار يزحفون نحو بغداد لابتلاعها بمئتي ألف محارب، والجيش العربي زهاء عشرة آلاف !

لقد استشرى الفساد ، وعم أرجاء الخلافة العباسية في بغداد ، وجر معه المآسي والويلات ، التي جعلت أهل الحكم يشرقون بالعدو بعد أن احتسوا كاسات المنى والطلا، كما ذكر الشاعر شمس الدين الكوفي , حين قال: -[٢]

إن الذين بكاسات المنى شربوا	صبحاً فمصطبح منها ومغتبق
بينما هم يشربون الراح ما شعروا	إلا وهم ببقايا الكأس قد شرقوا

وفي واحدة من قصائده جلى لنا الشاعر أسعد بن إبراهيم بن حسن مجد الدين النشابي (ت٦٥٦هـ) الحقيقة عارية أمامنا . إنها سيرة الخليفة العباسي وبطانته الفاسدة الضالة المضللة ، فراح ينبه من بدايتها ذهن السامع إلى ما يريد بسطه عن النكبة وأسبابها ، معتمداً الأسلوب الإنشائي، وخاصة صيغة الأمر، لأنه يريد إسماع صوته المتحشرج في حلقه ، لكل راغب في معرفة خبر الهزيمة المرة ، الذي سيسوقه الشاعر موثقاً بالحجة والدليل ، لأنه عانى الحدث , وعانى ويلاته ، وعرف أسبابه ، إنه فساد أهل السلطة بكل أشكاله ، ممن باعوا الآخرة بالدنيا بثمن بخس ، فتحللوا من الدين , وعاثوا في الأرض فساداً ، ففشا بينهم السكر ، والعجز ، والخور ، ولم يربؤوا عن فعل المنكرات صغيرها وكبيرها. فالشاعر يرى في الإمام (الخليفة)

---

[١]- المصدر نفسه ، ابن كثير ،١٣/ ٢٠٠

[٢] عيون التاريخ محمد الكتيبي ٢٠٠/١٢٩.

فساد السيرة والسريرة ، أضلته فئة فاسدة العقيدة ، الدين منها براء ، وهو يحكم علـى أهوائها الباطلة ،يقول :- (١)

يا سائلي ولمـحض الحـق يرتـ ـاد	إصـ ـغ فعنـ ـدي نشـ ـدان وإنشـ ـاد
واسـمع فعنـدي روايـات تحققهـا	درايـ ـ ـة وأحاديـ ـ ـ ـث وإسـ ـناد
عن فتية فتكوا في الدين وانتهكـ ـوا	حمـاه حمـلاً بـرأي فيـ ـ ـه إفسـاد
إذا ترامت أمور الناس لـيس لهـ ـم	فيهـ ـا رواء ولا حـ ـزم وإ نجـ ـاد

أما الوزير فزير نساء ، والحاجب لا يعرف الصحو أبداً ، وشـيخ الإسـلام لا يتورع عن فعل الحرام ، وأكل المال بالباطل ، وجمع ما يستطيعه من حطام الـدنيا، يقول: (٢)

أمـا الـوزير فمشـغول بعنبـره	والعارضـان فنسّـاج ومـدّاد
وحاجب الباب طوراً شارب ثمـل	وتـارة هـو جنكـي وعـواد
وابن عباس مغري بـاللواط لـه	فـي كـل ناحيـة علـق وقـواد
وشيخ الإسلام صدر الدين همتـه	مقصورة لحطام المـال يصـطاد
الكفر أضرم في الإسـلام جذوتـه	وليس يرجى لنـار الكفـر إخمـاد

هذه هي حال أهل الحل والعقد، انشغال بملذاتهم الخاصة، وسـهراتهم العـامرة بالفجور، ولياليهم الحمراء، فلا هم لهم سوى كأس الحميا يشـربونها، أوقينـة تغنـي

(١) المصدر نفسه، ١٢٩/٢٠
(٢)- المصدر نفسه ، محمد الكتبي، ١٢٩/٢٠

وترقص بين أيديهم، وجارية يتسرون بها، جاحدين نعمة الله عليهم، ناسـين ضـعفهم وذلهم، فوقعوا في المحظور، وحل بهم وبمركز حضارتهم الخراب والموت، كما أشار الشاعر إسماعيل التنوخي بقوله:-[1]

والله يعلم أن القوم أغفلهم   ما كان من نعم فيهن إكثار

فأهملوا جانب الجبار إذ غفلوا   فجاءهم من جنود الكفـر جبـار

ولم يكتف الشعراء بنقد سياسة الخليفة وحاشيته، بل كـانوا أكثـر جـرأة ووضـوحاً ومباشرة في تحذير الخليفة من الخطر، وإنذاره وتهديده بالخلع ،إن قصر بواجبه، ولم ينهض لحرب المغول، وإلا فالموت قادم لا محالة، كما جاء في تلك الرقاع التي ألقيت في قصر الخليفة، يقول أحدهم:-[2]

قـــل للخليفـــة مهـــلاً   أتـــاك مـــا لا تحـــب

فـــانهض بعـــزم وإلا   غشّـــاك ويـــل وحـــرب

كســـر وهتـــك وأســـر   ضـــرب ونهـــب وســـلب

الشاعر المجهول يرفع عقيرته محذراً من داهية ستعم البلاد والعبـاد، وتجعـل الولدان يشيبون لهولها، ولشدة بأسها، حتى ليرى المرء في الموت راحة لنفسه وقلبـه وعقله، على ألا يشهد هذا المشهد المأساوي، كأمنية النشابي الذي قال:-[3]

أين المنيـة منـي كـي تسـاورني   فللمنيـــة إصـــدار وإيـــراد

(1)-شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ٥٢/١.
(2)-الفخري في الأداب السلطانية، محمد علي طباطبا، ص٤٠
(3)-عيون التواريخ، محمد الكتبي،٢٠/ ١٢٩- ١٣٠

من قبـل واقعـة شـنعاء مظلمـة يشيب من هولهـا طفـل وأكبـاد

الخيانة :

الخيانة من أهم الأسباب التي قصمت ظهر البعير، الوزير ابن العلقمـي يتـآمر على الخليفة العباسي، فهو أول من برز إلى التتار، وخرج بأهله وأصحابه ، وخدمـه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو، ثم عاد وأشار على الخليفة بالخروج إليـه، لتقـع المصالحة، على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة[1]. ويقال إن الذي حسن قتل الخليفة عند هولاكو، الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسـي ، قال الوزير(متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك)[2].

الأمة العربية تتعرض لخطر كبير ، والخليفة وأعوانه يتقاسمون الغنائم مع التتر، حفاظاً على أرواحهم ومصالحهم ، ويهادنونهم على حساب أرواح الناس وأرزاقهم !

فها هو ذا صاحب الموصل يصالح التتار سنة (٦٥٦هـ)، خوفاً على نفسه وملكه، فيرسل مدداً للمغول في حربهم ضد البغاددة ، وميـرة وهـدايا ، وقـد نصبت المجانيق والعرادات لحرق بغداد وتدميرها [3] .

أبناء الجلدة يستعدون على جسدهم الواحد، ويتحالفون مع العدو ضـد قـومهم، ويتقاعسون عن الدفاع عن الأرض العربية، ناسين قول الشاعر الأندلسي ابن حمديس

---

[1]-البداية والنهاية، ابن كثير، ١٣/ ٢٠٠

[2]-المصدر نفسه، ٢٠٠/١٣

[3]البداية والنهاية ، ابن كثير ،٢٠٠/١٣

الصقلي، الذي أعلن صراحة تنكره لأبناء جلدته، إن لم يكونوا عوناً وسنداً له في وجه العدو المشترك للعرب والمسلمين ، فقال :- [1]

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي إذ لم أصل بالعرب منكم على العجم

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، إنهم يخذلون من يقاتلون معـه مـن إخـوانهم العرب ، ويغدرون بهم، ويتخلون عنهم في أحلك الظروف، خوفاً من بطش المغـول، وحباً في الحياة وسعياً وراء مكاسب مادية زائلة ، وهذا ما حصـل للملـك الأيـوبي الناصر يوسف بن محمد بن غازي [2]، الذي طعن من الخلف ، حين خذلتـه أسـرته أولاً ، وانفض من حوله عسكره ثانياً، فوقع في الأسر، وأهين على يد كتبغـا نـوين نائب هولاكو، ثم قتل بعد هزيمة المغول في عين جالوت ، وقيل قتل انتقاماً بعد موقعة حمص سنة (٦٥٩هـ) [3]. هذا السلوك المشين – الجبن والتواطـؤ مـع المغـول – أغضب الشاعر أمين الدين علي بن سليمان السليماني (ت٦٥٩هـ)، وجعلـه يشـعر بالاستياء الشديد، والحزن الكبير، فعمل على خطين متوازيين الأول هجاء من قصروا عن نصرة الملك الأيوبي, الذي وطأ لهم الأكناف، وذاد عـن حمـاهم، فلمـا حمـي الوطيس بعد أن استولى التتار على حلب سنة (٦٥٨هـ) وجد القائد الأيـوبي نفسـه وحيداً محاصراً عاجزاً عن الحركة أو الفعل، فتوجه جنوباً، ومن ثم إلى غزة فمصر، ولكنه أخفق المغول في دخولها، فعاد مع نفر قليل من الجند إلى وادي موسى فأدركه التتار، فتفرق عنه العسكر فأخذ أسيراً ليقتل بعد ذلك ثأراً لقتلى المغـول. ولـم يجـد الشاعر أمين الدين السليماني عذراً لجبنهم وتخاذلهم أمام التتر، وهو في غاية الدهشـة

---

(1)- ديوان ابن حمديس الصقلي، ص٤١٦.

(2)- هو محمد بن غازي بن أيوب، الملك الناصر، صاحب ميافارقين، تملك بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٥هـ ،كان ملكاً جليلاً دينياً ، شجاعاً محسناً إلى الرعية ، كثير التعبد والخشوع ، استشهد على أيدي التتـار بعد سقوط ميافارقين ، وقطع موسى رأسه وطيف به في البلاد ، ثم علق بسور باب الفـراديس سـنة ٦٥٩هـ , ذيل مرآة الزمان ، موسى .

(3)- المصدر نفسه، ١/ ٣٤٩- ٣٥٩.

والاستغراب من فعلهم، لأنهم كانوا أشد بأساً وأكثر عدداً، كما أن الحرب لم تضع بعد أوزارها، ولم تنجل الأمور ـ سواء أكانت خسارة أم ربحا ـ حتـى سـارعوا إلـى الاستسلام ومهادنة العدو، يقول الشاعر أمين الدين السليماني في هذا المعنى:-(١)

خـذلتك أسـرتك الـذين ذخـرتهم ... للنائبـــات وقـــد وقفـــت حيالهـــا
مـاذا تقـول جحافـل ملمومـة ... مـلأت سـهول بلادهـا وجبالهـا
رهبت وما شهدت وغى فاستسلمت ... من قبل أن تضع الحـروب سـجالها
تركـوك منفـرداً بقطيـة ذاهـلاً ... تسـفي عليـك العاصـفات رمالهـا
جنح الشقي إلـى مسـالمة العـدى ... ليريـك عاجـل صـرعة ووبالهـا

لقد تخلوا عنه في حربه ضد المغول، وأسلموه للهلاك بأيديهم، لغاية فـي نفـس يعقوب، إنها شهوة السلطة والجاه، التي جعلت أسرته وعسكره يسلمونه لمصير بائس، ولم يعلموا أن مصيرهم سيكون أشد بؤساً وظلمة، لأن ثمن الخيانـة والتثاقـل إلـى الأرض، وعدم النفرة إلى الجهاد مكلف جداً، لا يعود على صاحبه إلا بالويل والثبور، إنه فساد في الرأي، وخبل في العقل، وضياع للمال والأهل والولد، وذهاب للسـلطان والجاه، ثم المذلة والهوان، والحزن والأسى بعد السعادة والفرح، فمكر السوء والشر لا يحيق إلا بصاحبه، كما قال الشاعر السليماني في معرض هجائه لهذه المتخاذلة، التي خسرت كل شيء، ولات ساعة مندم:-(٢)

وحاق بهم ما أضـمروا وصـادفوا ... على إثر ذاك النهب والسبي والقتلا
لقـد أفسـدوا أراءهـم وحلـومهم ... وأموالهم والأرض والحرث والنسلا
زوى ملك مصر عنهم وجـه بـره ... فخابوا ولا علا أصابوا ولا نهـلا

(١)-ذيل مرآة الزمان، موسى اليونيني، ٢/ ١٤٧- ١٤٨.
(٢)-المصدر نفسه، ٢/ ١٤٤.

وكم أهيف يبـدي لنـا الـذل قـده		وقد كان قبل اليوم يبدي لنا الـدلا
وكم وجنة صفراء بعد احمرارهـا		وكم مقلة قرحا عهدي بهـا كحـلا

وقد لخص أمين الدين السليماني بعبارة وجيزة حكمية ووعظية فعـال الملـوك المتخاذل إزاء بعضها، وبين سوء عاقبة هذا العمل من خلال هذا الجنـاس اللطيـف، فقال:-

إن الملــوك إذا تخــاذل بعضــها		عن بعضـها ففعالهـا أفعـى لهـا

وأما الخط الثاني، فقد خلد فيه الشاعر مأساة هذا القائد التاريخي، بكـلام يقطـر دماً، حيّاً فيه صموده، ومقاومته للمغول منفرداً. وسنتعرف هذا الموقـف فـي أثنـاء حديثنا عن شخصية البطل المنتقذ.

و حمل الشعراء أولي الأمر مسؤولية ما حصـل، وكشـفوا عيـوبهم، وبينـوا عوراتهم وغلطاتهم، فهل يتحمل العوام نصيباً من المساءلة؟ لم يبرئ بعض الشـعراء الناس من جريرة ما حدث، فما تفشى بين ظهرانيهم من فساد وانحلال خلقي ودينـي، إلى جانب عوامل الفرقة والانقسام، أسهم بدوره في حدوث الفاجعة، وكان الشاعر عبد الله الغزولي، أول من نبه إلى خطر هذه المظاهر غير الصحيحة، وخاصـة الفرقـة والتشرذم، فقال مستشفعاً بالله ونبيه (ص)، ليلم شمل هذه الأمة، ويخفف مصابها، ولا يؤاخذها بذنوب بعض أبنائها:-[1]

يـا رب لـم شـتاتهم بمحمـد		سـر الوجـود وبهجـة الأكـوان
يارب فعل الذنب أصـل بلائنـا		فاصفح وجـد للمـذنب بـالغفران

[1]-مطالع البدور، علي الغزولي، ٢/ ٣٠٠.

٢- البعد الديني :-

عزا مروجو هذا البعد دواعي الهزيمة إلى القضاء والقدر ، وراحوا يطلبون إلى الناس عدم الخوض في الأمر ، ففي ذلك العمل مظنة فساد ، وشك في أمر الله وتدبيره ، كما صرح بذلك شيخ رباط المرزبانية (عفيف الدين يوسف بن البقال) الذي صدم لما حدث ، فأرغى وأزبد ، فرأى في المنام من يؤنبه ويحاسبه ، فقال[(١)]

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم في حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد دع الاعتراض فما أجهلك

ورأى رأي شيخ المرزبانية إسماعيل التنوخي، وشمس الدين الكوفي، وغيرهما، وهو فيما نرى فهم قاصر للحدث .

وإن لم يكن للقدر يد، فالدهر يعتب ويستعتب ، والأيام تسأل عنه ، وفق رأي الكوفي الذي قال:[(٢)]

والله ما اخترت الفراق وإنما حكمت علي بذلك الأيام

أما الشاعر أبو بكر قاضي عجلون من أهل الشام ، رأى في نبذ تعاليم الدين الحنيف وراء الظهور، والتقصير في أداء الفروض الدينية والطاعات ، مدعاة لجلب سخط الله ، وحلول نقمته وغضبه، وفي هذا الرأي إشارة إلى تحلل الناس في المجتمع الشامي إبان الغزو المغولي، من القيم الإيجابية ، التي دعا الشاعر للعودة إليها ،

---

(١)- البداية والنهاية، ابن كثير، ١٣/ ٢٥٣.
(٢)- فوات الوفيات، شاكر الكتبي، ١/ ٤٩٨.

والعض بالنواجذ عليها ، فقال بعد وقعة المرج سنة (٧٠٢هـ) ، التي انتصر فيها العرب على المغول :- [١]

يا أهل جلق أمناً في مساكنكم | وعاملوا الله رب العرش وانزجروا
صوموا وصلوا وزكوا وارحموا | وابغوا النجاة وحجوا البيت واعتمروا
فالوقت أقرب والأنفاس سائرة | والعيش منصرم والعمر مختصر

بهذه الفعال يتحصل الفوز والفلاح ، والربح في الدنيا والآخرة ، وإلا فالخسران المبين ، كما يرى الشاعر الشيرازي ، الذي نظم قصيدة طويلة في رثاء بغداد ، لبس فيها لبوس الواعظ ، الداعي لاتخاذ الحيطة والحذر، والاتعاظ بما حصل، فقال :- [٢]

ربحت الهدى إن كنت عامل صالح | وإن لم تكن والعصر إنك في خسر

وضع الشاعر اليد على عوامل الهزيمة وأبعادها، وفسرها تفسيراً منطقياً، فلولا الفساد السياسي والانحلال الخلقي والديني، والخيانة والتقاعس عن لقاء العدو، لما نزل بالأمة العربية ما نزل ، ولكن الخطب وقع ، ولا صبر بعد اليوم على المأساة، وما نفع الصبر والصمت على المهانة ، والعرض مهتوك ، والحمى منهوك، ولا سبيل إلا الحرب لجبر ما انكسر ، فإما الموت بشرف في ساحة النزال وهو أولى، وإما حياة عز وكرامة ، كما قال المتنبي :-[٣]

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم | بين طعن القنا وخفق البنود

لذلك راح الشعراء يضعون الصوى والمعالم التي توصل إلى النصر المؤزر المبين ، فما هي هذه العناصر والمقومات ، وما السبيل إليها ؟

(١)-كنز الدرر، عبد الله الدواداري، ٩/ ٩٣.
(٢)-المتنبي وسعدي، د. حسين محفوظ، ٧٧.
(٣)-ديوان المتنبي، ٣٢١/١.

طريق النصر :-

رأى الشاعر شمس الدين الطيبي (٧١٧هـ) في واحدة من حماسياته ، وهي دعوة صريحة لمقاومة المغول ، أن النصر لن يتحقق إلا بقعقعة السيوف ، ولمعانها تحت أشعة الشمس ، وتراقص الرماح، وتطاحن الخيل والفرسان ، وهي أشهى من ريق الغواني ، وأكرم من الجري وراء الحسان ، والتغزل بمحاسن العذارى ، أو التلذذ بشرب الخمر ، ومسامرة القيان ، فحياة الحرب حياة العز والشرف ، وحياة اللهو والسمر حياة الذل ، ولا حياة أو وجود إلا لمن نزوروا أنفسهم ليوم كريهة وسداد ثغر ، وقاموا مقام رجل واحد للذود عن الأرض، واستعادة الحق المغتصب، كما أشار الشاعر الطيبي بقوله بعد وقعة المرج سنة (٧٠٢هـ)[1] التي انتصر فيها العرب:[2]

برق الصوارم للأبصار يختطف	والفتح يحكي سحاباً بالدما يكف
أحلى وأعلى وأغلى قيمة وسنا	من ريق ثغر الغواني حين يرتشف
وفي قدود القنا معنى شغفت به	لا بالقدود التي قد زانها الهيف
ولأمة الحرب في عيني أحسن من	لام العذار الذي في الخد ينعطف

---

[1]-سبق للمغول أن احتلوا دمشق سنة (٦٩٩هـ)، بعد هزيمة المسلمين في وادي الخزندار، ثم عادت السلطة للمماليك، وجرت مراسلات بين غازان ومحمد بن قلاوون بين سنة (٧٠١هـ و٧٠٢هـ)، لم تسفر عن إقرار الصلح، فتوجه غازان صوب دمشق لغزوها، وأناب عنه قطلوشاه، فخاف أهل الشام وعزم بعضهم على الفرار إلى مصر، ولم يحل دون ذلك إلا فتاوى العلماء، ودعوتهم للجهاد، وفي يوم السبت ٢ رمضان سنة (٧٠٢هـ) التقى الجمعان، فهزم الجيش المصري أول الأمر، ولحق بهم قطلوشاه إلى جبل قريب، ليجد نفسه محاصراً من المسلمين، واقتتل الفريقان من جديد، وكانت النصرة للعرب، حيث قتل عدد كبير من التتارالفارين بعد أن ألقوا سلاحهم.
- البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/ ٢٣- ٢٦.

[2]- الوافي بالوفيات،صلاح الدين الصفدي، ٤/ ٣٦٢.

والخيل في طلـب الأوتـار صـاهلةً ألـذ لحنـاً مـن الأوتـار تـأتلف
ما مجالس الشرب والأرطـال دائـرة كموقف الحرب والأبطـال تزدلـف
والرزق من تحت ظل الرمح مقتـرن بالعز والذل يأبـاه الفتـى الصـلف
لا عـــيش إلا لفتيـــان إذا انتـــدبوا ثاروا وإن نهضـوا في غمة كشفوا
قاموا لنصـرة ديـن الله مـا وهنـوا لمـا أصـابهم فيـه ولا ضـعفوا

ويرسم القاضي جمال الدين أبو بكر للشباب طريق العز والفخار ، فـلا يـرى نصراً علىالمغول، إلا إذا وطن المرء نفسه على لأوائها ، عندها يكون الظفر للقائـد، وينال ثناء الشاعر ومديحه، الذي عدد صفات المجاهدين الصابرين ، وتغنـى بهـا ، فقال:- (1)

ثـاروا سـراعاً إلـى إدراك ثـأرهم وهجروا في طلاب المجد وابتكـروا
وأسهروا عيناً فـي الله مـا رقـدت أكرم بقوم أذا نـام الـورى سـهروا
لله كـم دينـوا فـي نصـر ديـنهم وأنفقوا في سـبيل الله مـا ادخـروا
صانوا الجياد وسنوا كل ذي شـطب وجـددت للقســي النبــل والــوتر
حماهم الله كم حـاموا وكـم منعـوا وكم أغاثوا وكم آووا وكـم نصـروا
وخلفــوا خلفهــم لــذات أنفســهم وهاجروا ولذيذ العـيش قـد هجـروا

إن النصر في متناول اليد ، ولكن لا بد من ثمن ، إنه السهر علىراحـة العبـاد والبلاد ، وإعداد الفرسان والجياد ، والترفع عن الصغار ، والهجرة إلـى الله بالمـال والنفس ، وهجر لذيذ العيش، وطيب المنام ، وليس بالأمـاني أو قـراءة الطـالع ، ورصد حركة النجوم أو الكواكب كما فعل المغول قبل وقعة المرج ، فهزمـوا شـر هزيمة ، جعلت الشاعر أبا بكر يسخر من تدبيرهم ، في قصيدته التي استوحى إيقاعها

(1) كنز الدرر، عبد الله الدواداري ، ٩/٩١-٩٣

ومعانيها من قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، التي خلد فيها الشاعر العباسي مـآثر الخليفة المعتصم، الذي عزف عن قول العرافين ، وقراءة النجوم، بـل فكـر ودبـر وعزم، فكان له النصر من عند الله ، يقول أبو بكر في هذا المعنى معبراً عن فرحـه بالنصر: -(١)

الله أكبـر جـاء النصـر والظفـر	والحمـد لله هـذا كنـت انتظـر
أين النجـوم وتـأثير القـران ومـا	تخرصوا فيه من إفك ومـا زجـروا
قـد دبـر الله أمـراً غيـر أمـرهم	وخاب ما زخرفوا فينا ومـا هجـروا

نعم، إذا أراد الله أمراً كان حتماً مقضياً، لا تنفع معه التمائم ولا النذر، ولا قراءة النجوم، وهذا المعنى يذكرنا بقول أبي ذؤيب الهذلي في مسألة الموت عندما قال:- (٢)

وإذا المنيـة أنشـبت أظفارهـا	ألفيـت كـل تميمـة لا تنفـع

حدد الشعراء فيما سبق الصوى للنصر، غير أن قطف ثماره يحتاج إلى رجـل شجاع، يكون بمرتبة المنقذ (المخاص) للناس من عنتهم، وقد ارتبط هذا البحث عـن المنقذ منذ القديم بالوجدان الشعبي، وخاصة عند كثرة الخطوب، حيث يشـيع اليـأس والقنوط من الفرج، كما هي الحال مع أبطال السيرة الشعبي، (أبـو زيـد الهلالـي – عنترة – الظاهر بيبرس) وغيرهم. فما خبر هذا البطل ، وما هي صفاتة ، وما دوره ومكانته في حياة الناس والأمة ؟

(٢) كنز الدرر، عبد الله الدواداري ،٩٥/٩.
(٣)-ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ١٤٧.

البطل (المنقذ) :

تتكون شخصية الفرد من مزيج من أهدافه وتصرفاته ، وآرائه وعاداته ومقاييسه الخُلقية، ومدى فهمه لنفسه ومقدار تقييمه لها [1]. وقد التزم الشعراء جميعهم بـالنمط الكلاسيكي في إبراز شخصية البطل (المخلص) وهي في دلالاتها معادل موضـوعي للقوة والشجاعة وشدة البأس، والثبات في أرض المعركة، والمهارة في القتال، وحسن الفطنة والتدبير، وحسن القيادة والسيطرة على الجيش، وإدارته بكفاءة، تجلب النصر، وتلحق الهزيمة والمذلة بالعدو. وأضاف الشعراء إلى صفات القيادة العسكرية بعـض القيم الإيجابية ، التي يجب أن يتحلى بها البطل (كالحلم ، الكرم ، والنبل ، والعفـو ، وإغاثة الملهوف ونصرته) ، ولا بد أن يتوج ذلك كله الإيمان (التقى والورع)، وكأني بالشاعر يرسم صورة كرتزمية بعيدة عن الواقع للشخصية الحقيقية ، لأننا وجدنا مثل هذه الصفات تطلق على عدد من قادة الحرب والجهاد على اختلاف مشاربهم وطباعهم ومسلكهم وخصائص شخصيتهم ، (كقطز، وبيبرس ، وقلاوون ، والملـك المنصـور صاحب حماة) ، وغيرهم .

وهذا التشكيل لشخص البطل يعود لأمرين ، الأول مرتبط بالمفهوم العام للبطولة الشعبية، وهي ذلك المزيج المركب من الواقع والخرافة، فالأصل الواقعي لبطـولات المقاومة يتجاوز في المخيلة الشعبية حدود الواقع وأطوار التاريخ، لتتجمع بعدئذ فـي فرد واحد خصال شعب وأغوار أمة [2].

أما الأمر الثاني ،فهو تعمد الشاعر أو كاتب السيرة الشعبية، أو من يرسم هـذه الشخصية إظهارها بهذا المظهر المبالغ فيه، ليبهر أعين الناس، ويطرق سمعهم بقوة، ويملأ أفئدتهم بحب هذا الرمز الأسطوري ، الذي جمع في شخصـه كـل الخصـال

---

[1] ـ الإنسان في المرآة ، كلايد كهون، ٤٠٩

[2] ـ أدب المقاومة، د. غالي شكري، ٢٧١.

المحببة . إنه المثل الأعلى الذي ترجاه الشعراء ، المخلّص للناس من شر المغـول ، الجالب لهم الأمن والأمان ، الحافظ للدين، الصائن للعرض والروح.

لذلك كان المعول على هذا البطل القيام بواجب النهوض بالأمة من عثارها ، فهو الغوث والنجدة، وهو القوة والأمل. وها هو ذا الظاهر بيبرس ، ينهض لقتال المغـل، حين علم أنهم أتوا البيرة، لا يثنيه عن عزمه شيء، لا قـوة العـدو ولا كثرتـه، ولا وعورة أرض المعركة ، وصعوبة العراك فيها، فلتفرح المدن قبل الناس لمجئ هـذا المخاص، ولتقر العيون وتطمئن النفوس كما صرح بذلك الشاعر ناصر الـدين ابـن النقيب (الحسن بن شارو "ت ٦٨٧ هـ") [1] :-

نهضـت لهـا ولـم تخـش العثـارا ولاخفـت الثلـوج ولا القطـارا
فقـل للبيـرة انتئـدي وقـري فقـد وافـاك مفتْـك الأسـارى
أتـاك الظـاهر السـلطان ركضـاً على صـهوات خيـل لا تجـارى
يـذل بهـا جبـاه الـروم دكـاً فتنسـفها وتجعلهـا غبـارا
عسـاكر تمـلأ الـدنيا خيـولاً وفرسـاناً وأسـلحة ونـارا

هب الظاهر غير هياب ولا وجل، وعسكره من حولـه يشـدون أزره ، لإنقـاذ المدنية وأهلها من بغي التتر ، فلتطمئن لقدومه ، فالأخبارعن بـأس الرجـل وشـدته طارت بالآفاق، ويقال إن المغول لما نمي إليهم، زحفه نحو البيرة ، فروا دون قتـال، حتى قبل أن تصل طلائع قوات الظاهر بيبرس، التي كانت حركتها تدب الرعب فـي قلب العدو، وتذيب مرارته، بعد أن خبروا قوته في المعارك.

---

[2] الروض الزاهر ، محيى الدين عبد الظاهر، ٤٠٩

وقد عرف عن الظاهر حبه للمغامرة، وتحدي المخاطر في جرأة نادرة ، إذ جاء في كتب التاريخ أنه خاض بجنده غمار الفرات بسفن الصيد البدائية [(١)]، غير عـابئ بالغرق أو الموت، وربما لم يسبق له أن خاض لجة نهر صغير، وكان ظن المغول أن المياه مانعه عنهم الموت، فلما تمثل الموت والرعب أمامهم، بعـد أن وطـأت أقـدام الظاهر وجنده الضفة الثانية، سـارعوا إلـى طلـب الصـلح واسـتعطاف الظـاهر واسترضائه، فأبى القائد المظفر، ولم يجب طلبهم الذي لجؤوا إليه طمعاً في الحيـاة، فدارت رحى الحرب الزبون عليهم التي أطارت منهم العقول ، ودفعتهم إلـى الفـرار مجللين بالخزي والعار، كما صور المشهد الشاعر ناصر الدين بن النقيب بقوله: [(٢)]

وكـم بعثـت إليـه الرسـل طرقـاً	وكم طلبت رضـاه بهـا مـراراً
وكـان الخـوف الجأهـا اضـطراباً	وكان الـذل أحوجهـا اضـطراراً
فلمــا لــم يجبهــا فــي ســؤال	جفت مـن أرضـها سـكناً ودارا
ونــازل خوفـــه مــنهم نفوســاً	فذاقت فـي جسـومهم الحصـارا
وولــوا هــاربين بــلا عقــول	وبـاتوا خـائبين وهـم حيـارى

يشير الشاعر إلى أن الظاهر نصر بالرعب، وهو واحد من أهم وسائل الحرب، وقد اقتبس الشاعر إشارته من وحي غزوة الخندق التي نصر الله بها نبيه (ص) علـى الأحزاب بالخوف، عندما أرسل على المشركين ريحاً صرصراً، قذفت الرعـب فـي قلوبهم، فولوا الأدبار لا يلوون على شيء.

---

(١) علم الظاهر وهو في دمشق بنزول التتار على البيرة، فسار إلى حمص، وأخذ مراكب الصياد يـن على الجمال، ليجوز عليها نهر الفرات، للقاء ثلاثة ألاف فارس من التتار، فلما وصل إلى الشط ، تقدم العسكر الأمير سيف الدين قلاوون، وبدر الدين بيسيري ، ثم تبعهما بيبرس، فوقعوا على التتار، وقتلوا منهم مقتله عظيمة، وأسروا مئتي نفس، ولم ينج إلا القليل، فلما بلغ الخبر التتار في البيره رحلوا عنها، ودخلها السلطان ظافراً سنة ٦٧١ هـ، وأنعم على أهلها بما تركه التتار.
البداية والنهاية، ابن كثير ٢٦٣/١٣

(٢) ـ الروض الزاهر، محيى الدين عبد الظاهر، ٤٠٩ـ ٤١٠

إن مشاعر الخوف الإنسانية غير موجودة لدى البطل ، وهو يرغب بالموت ، بل هو الموت والرعب ذاته، إنه فريد في صفاته ، لأنه بطـل أسـطوري تجـرد مـن عواطفه، ويقوم بالمعجزات أمام عدو جبان.

ويلاحظ أيضاً أن حديث الشاعر عن البطل المنقذ فيه شيء مـن الموضـوعية، لأنه لم ينسب النصر لشخص القائد وحده، ففي الكثير من النماذج الشعرية التي تناولت بحديثها البطل، لم نر بطولات فردية، وهذا أمر مهم، صحيح أن هناك رمـزاً يحمـل العديد من الصفات النبيلة، وهناك أيضاً جيش جرار، جاء بصحبته لحرب المغل، وهو لا يقل أهمية عن رأسه، وتلك رؤية واقعية من قبل الشاعر، فأسباب النصر مجتمعة لا منفردة، يلزمها قائد خبير، وجيش مسربل بالحديد، أعد خير الإعداد لخوض الحروب، ودون هذا التكامل لن يتحقق النصر.

وقد بالغ الشعراء بموقفهم من شخص البطل، فناصر الدين العسقلاني ت (٧٣٠ هـ)، رأى أن السر في قوة السلطان قلاوون، صاحب القدم الراسخة في الوغى، فـي حين يفر الصناديد من هولها، يكمن أن الله أيده بنصره، ومنحه قوة الشكيمة، واختاره ليوم كريهة وسداد ثغر.

لذلك لا عجب إذا رأينا الشاعر يحمّل البطل ما لا يطيق كبشر، فهو معقد الأمل بالفرج والنصر ، وهو الأسد الهصور على العدى ، والنبراس في الليل البهـيم، كمـا وصف العسقلاني السلطان قلاوون، بقوله: [1]

هو المـلـك المنصـور والله خـاذل	أعاديـه خـذلاً وناصـره نصـرا
هو المقدم الكرار في حومة الـوغى	إذا أحجم الأبطال وامتلـؤوا ذعـرا
هو الأسد العادي على أنفس العـدى	هو القمر الهادي إذا أظلم المسـرى

(١)- زبدة الفكرة، للأمير بيبرس، ١٦٢/٩ .

ولم لا يكون كذلك، والله حباه بالملك لحكمة شاءها جل شأنه، فلما حل بمصر ، حل معه الأمن والأمان والخير والبشر ، فصان الحرة ، وحفظ على الناس أرواحهـم وأرزاقهم ، فنال محبة الناس ، واستحق ثناء الشاعر العسقلاني ، الذي تغنـى بفعالـة الخيرة، فقال: (١)

للخيـ ـر أراد الله ملـ ـك قـ ـلاوون	فأحبابـه الإسـلام والملـة الغـرا
وما هـو إلا الملـك الصـالح الـذي	أمنا به الأعداء والـدهر والفقـرا
وصـان حـريم المسـلمين بسـيفه	فلا أيم تسـبى ولا توطـأ العـذرا
فسـكان مصـر كلهـم عتقـاؤه	فلا غرو أن يستعبد العبـد الحـرا

إن الدلالة المعنوية للبيت الرابع ، تعرفنا على ملمح جديـد لشـخص البطـل ، فالمنقذ هنا (قلاوون) لم يكن من طبقة النبلاء ، أو أصحاب الدم النقـي ، أو العـرق الصافي ، كما توحي إشارة الشاهد ، إن هو إلا إنسان عادي ، بل هـو مجـرد عبـد مجهول النسب ، فهو واحد من المماليك ممن جلبوا لخدمة أمراء بني أيوب ، غير أن سمة العبودية التي تكون عادة نظيراً للوضاعة ، لم تحل دون نهوض هذا الرجل لإنقاذ الأمة من خطر التتر.

وربما كانت هذه إشارة إلى تخاذل بعض الأحرار من طبقـة الأمـراء وعامـة الناس، أو بيان إلى أن داعي الجهاد فرض عين على كل مسلم ، ولا فرق فيه بين سيد وعبد ، أو غني وفقير .

لهذا دبج الشعراء غرر قصائد المدح في هذا العبد ، فتحدثوا عن حميـد فعالـه، ونبيل أخلاقه ، ولم لا وهو الكرم الفياض والحلم في السلم ، وهو الشجاع في الحرب، الملبس الأعداء ثياب الذل والهوان ، بعد أن فرق جمعهم ، وجعل رؤوسـهم طعامـاً

---

(١)ـ زبدة الفكرة، للأمير بيبرس ، ١٦٣/٩ .

لسيوف المسلمين ، كما صور محمد بن عمر المنبجي (ت٧٢٣ هـ) فعله بالمغول في وقعة المرج سنة (٧٠٢هـ) ،فقال :- [1]

يا مخجل السيف عزماً وهو منصـلت	والمرعب الليث بأساً وهو منتصر
يا ناصر الدين يا من حســن دولته	أمست على دول الماضين تفتخـر
أو قدت نيران حرب أصبحوا حطبـاً	للجمر منها لها شوك القتاد شـرر
دارت عليهم رحاء الموت فانهزمـوا	فما لهـم بعـدها عـين ولا أثـر
وضاقت الأرض مذولوا بما رحبـت	عليهم فمنهم بالخوف قد حصـروا

السلطان (قلاوون) هو البأس والقوة ، هو الموت الذي لا يبقي ولا يذر ، والعدو بين يديه ضاقت به السبل ، ولا منجاة من يد القائد (قلاوون) من فرحت الدنيا وزهت لبأسه وعدله، فبات هاجس الخوف لا يخالج أذهان الناس في عهد هذا المـلاذ الآمـن للناس، يحتمون به من شر الموبقات، المـوت والخـوف والعـار، يقـول الشـاعر المنبجي:- [2]

هزت معاطفهـا الدنيــا به فرحـاً	وطاب بالأمن في أيامـه العمـر
أزال عنا مخافـات النفـوس فمـا	يدور بـالخوف أوهـام ولا فكـر

هذا الإحساس بالراحة والأمان نابع من وجود هذا البطل بين ظهرانيهم ، وفعاله تشهد عليه ، إذ وطد النفس على طرد المغـول مـن الأرض العربيـة ، لأنـه أدرك ببصيرته النافذة، وتلك سمة أخرى في شخصية البطل ، خطر المغول وأطماعهم فـي الشرق العربي كله، فلا منجاة لمن بمصر إن تعرضت الشام للغزو، ولا مناجاة لمـن بالشام إن غزيت مصر، وذلت على يد التتار، لذلك جعل من منازلته للمغول هاجسـاً

(١)- كنز الدرر، عبد الله الدواداري ، ٩/٩١-٩٣

(١) - المصدر نفسه ، ٩/٩٢.

بل هماً كبيراً، فلن يهدأ له بال ما دام ظل المغول فـي الأرض العربيـة يدنسـونها، ويروعون أهلها، فلما علم بزحفهم سنة (٦٨١ هـ) نحو حمص، سارع إلى قتـالهم، وعندما اشتجر القتال بينهم ، هزم المغول ، وغدوا بين قتيل وجريح وأسير ومختبل ، وهاهو ذا البزاز المنبجي يخبرنا بأحداث هذه الوقعة ، فيقول : [1]

لما سمعت بجحفـل المغـول الـــذي ... وطــئ الشــام وهمــه الأهــرام
فسريت نحوهـم بجـيش جحفـه وغـدت ... سعــد له النصـــر العزيز إمام
وغــدت سيـــوفك فيهـــم وكأنهـــا ... فــي فــري هــامهم لهــا إلهــام
غــادرتهم فــي أرض حمــص وخــيلهم ... لوحوش أرضك والطيـور طعـام
فقضوا عطاشــاً لا يــبل لهـم علـى ... الإعيـــاء والجـــوع الشــديد أوام

يظهر هذا الشاهد وما جاء على شاكلته ، اعتماد الشعراء فـي بنـاء صـورهم ومعانيهم على مخزونهم الشعري الموروث من الشعر القديم، وخاصة الشعر الجاهلي في حديثه عن الغزو، وحركة الجيوش برفقة العقبان والنسور التي ينتظرهـا وجبـة دسمة ، إنها بقايا العدو المهزوم ، ومن لم يكن طعاماً للطيور الكاسرة ، كان فريسـة للوحوش الضارية .

ويبدو أن المعجم الشعري كان غنياً بالمفردات الدالة على الصدام والعراك، مثل (القوة – البأس – الشجاعة – رباطة الجأش – والثبات في أرض المعركة) وغيرهـا، وهذا يعود إلى ما بدا من المغول من شدة بأس ، وبطش وقسوة ، ووحشية ، أدخلـت الرعب في قلوب الناس (قادة وعواماً)، حتى باتت المدن تسلم لقادة المغول دون أدنى مواجهة ، ومع ذلك كانت هذه المدن تتعرض بقاطنيها لأبشع أنواع الـذل والمهانـة والقتل والسبي والنهب .

[2] - زبدة الفكرة ، للأمير بيبرس، ١٦٤/٩.

ويضع الشاعر الشهاب محمود صورة البطل (حسام الـدين لاجـين) نائـب السلطان قلاوون ، قتل سنة(٦٩٨هـ)، في إطار جميل ، لا يختلـف فـي دلالاتـه المعنوية والرمزية عما اتفق عليه الشعراء من صفات للمخلص ، ولكنه يزيد علـيهم في بعض الجزيئات ، وإن كان يشركهم بالعموميات ، فالقائد حسام الدين كامل مكمل، لا يعتريه النقص، ولا يأتيه الباطل من بين يديه، يقول الشاعر في مدحه بعـد وقعـة حمص[١] (٦٨٠هـ) التي هزم بها المغول ، ومزقوا شر ممزق :- [٢]

قد جمع الله فيه كـــل مفتـــرق ... في غيره فهـو دون النـاس مكتمـل
فعن ندى يـده حـدث ولا حـــرج ... اليم ، ثم ، وثـم العـارض الهطـل
عطاء من ليس يثنـي قـبض راحتـه ... علـى النـدى سـأم يومـاً ولا ملـل
لو مثل الجـود سـرحاً قـال حـاتمهم ... لا ناقـة لـي فـي هـذا ولا جمـل
أحـاط بالنـاس سـور مـن كفالـته ... طـل لهـم وعلـى أعـدائهم ظلـل
أصبحوا فـي مهـاد الأرض يكلـؤهم ... مـن رأفـة لهـم يقظـان إن غفلـوا
يحنو عليهم ويعفـو عـن سيئـهم ... حلماً ويصفح عـنهم إن هـم جهلـوا
وأعـدل النـاس أيامـاً فـلا شـطط ... في الحكم منـه ولا حيـف ولا ملـل
أطـاع خالقــه فيمـا تقلـده ... فما عن الدين بالدنيـا لـه شـغل

يعدد الشاعر في هذا النص صفات البطل المنقذ ، إنه كريم دون حـد ، ورحـيم بالناس ذو رأفة بهم ، وحرص على مصالحهم ، عادل لاجور عنده ولا حيف، يتعـب

[١]- وردت الأخبار سنة ٦٨٠هـ جمادى الأولى ، بدخول منكوتمر أخي أبغا إلى بلاد الروم في ثمانين ألفاً ، وعينه على بلاد الشام، فجمع السلطان قلاوون العسكر قرب حمص للقاء المغول ، وفي السادس عشر جمادى الآخرة وصل منكوتمر حماة وكان منه خمسون ألفاً من المغل، والتقى الجيشان في حمص قريباً من مشهد خالد بن الوليد ، فهزمت أول الأمر ميسرة المسلمين ، في حين صمدت الميمنة التـي استطاعت هزيمة المغول ، وانجلت هذه المعركةعن قتل عدد كبير من التتار .
[٢]- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٢٤/ ١٨٣- ١٨٤.

الجسد ويسهر العين لأجلهم ، فيما هم ينعمون بالراحة والأمن في كنفه ، وبعد هذا كله لم ينس حق الله عليه، فقام بواجبه الديني على أكمل وجه .

هذا النموذج غدا محور الحياة ولبها في عرف الناس ، لأنه الرمز والقائد الملهم الذي تناط به عظام الأمور في الشدة والرخاء ، من هنا قد نرى هذا الشاعر أو ذاك يصعق لفقد البطل ، أو غيابه بصورة الموت أو الأسر ، فموت المنقذ المدخر لمدلهمات الأمور ، يرى فيه الناس حدثاً جللاً ، وخطباً جسيماً ، يبلبل الفكر ، ويشيع الخوف واليأس في النفوس . فعندما قتل الملك الأيوبي محمد بن غازي (الملك الكامل) صاحب ميافارقين سنة (٦٥٨هـ) ، حزن الشعراء أشد الحزن لفقده ، فبكاه غيرما واحد بدموع غزار، تقطر دماً وأسى ، وبينوا أثر غيابه في الناس، إذ مضى شهيداً بعد أن أمضى عمره في الجهاد في سبيل الله ، فمضى إلى جنان الخلد ليكون هناك مع النبيين والصديقين والشهداء ، كما قال في رثائه الشاعر شهاب الدين بن أبي شامة[1]:-

ابن غاز غزا وجاهد قوماً ... اثخنوا في العراق والمشرقين

لم يشنه أن طيف بالرأس منه ... فله أسوة برأس الحسين

وارتجوا أن يجيء لدى البعث ... رفيق الحسين في الجنتين

أما الشاعر علي بن عثمان بن سليمان السليماني ، فقد استعظم موت الملك الكامل، من كان شوكة في ظهر التتر طوال حياته ، فلما قتل بعد وقوعه في الأسر لتخلي قومه وعسكره عنه، ترك موته حسرة كبيرة في نفوس الناس، وغصة في حلوقهم، لأن الخسارة لا تتعلق فقط بشخص القائد ، بل ترتبط بالقيم والسجايا الحميدة، التي يرى الشاعر زوالها بزوال حاملها ، وأنى للزمان أين يجود بمثلها وبمثله. والبكاء

[1]- ذيل الروضتين ، أبو شامة المقدسي ، ص٢٠٥.

هنا بكاء إيجابي لأنه ندب للقيم الخيرة ، وليس مجرد تشنج وصراخ وعويل، وهذا ما ندعوه بالبكاء السلبي .

فالشاعر شديد التأثر لما أصاب هذا البطل ، يغمره القلق على مصيره ، حائر لا يدري ما يصنع أيبكي لمعاناته في الأسر ، ويتمنى خلاصه ، أم يبكيه ميتـاً فيسـلوه، وأنى له السلوى، وأمجاده تشهد له، وتجعله في أعلـى المراتـب ، وتكلـؤه العيـون والأفئدة ، وتبكيه الدنيا والملأ الأعلى ، فمن غيره يرجى للأيتام والأرامل والمساكين ، ومن غيره يرجى للجلى والمكرمة، يقول الشاعر السليماني في رثائه لأبـي المظفـر الأيوبي:- [1]

رمتك الخطوب فأقصـدتك نبـالها	والأرض بعدك زلزلـزت زلزالهـا
تبكيك ولولة الحريـم حواسـراً	مـن كـل معولـة تضـم عيالهـا
ومصونة في خـدرها ما شاهـدت	قبـل الرزيـة مـا يـروع بالهـا

إن الحديث عن البطل (المخاص) يرمي إلى هدف بعيد ، إنه يدعو إلى إثـارة الحمية في نفوس الناس (قادة وعواماً)، للتحرر من ربقة العبودية ، واستئصال شأفة المغول قبل استفحال خطرهم ، ويحرض على مجالدة التتر ، والثار للكرامة العربيـة المهدورة، لإنقاذ ما تبقى من أرض أو عرض، أو قيمة أخلاقية أو دينية، أو إنسانية .

الحض على القتال :-

كانت روح الدعوة إلى الثأر والانتقام من المغول قوية ، فالحقد في النفوس كمين أججت أواره المجازر التي ارتكبها التتار بحق البشر والحجر والشـجر ، والتـاريخ شاهد حي على فعالهم الدنيئة ، عدا ما جرته سياستهم من ويلات على من نجـا مـن الموت ، إذ فشافيهم الفقر والجوع والغم ، ونزل بهم الغلاء والبلاء ، فلما دخل غازان

---

[1] - ذيل مرآة الزمان ، موسى اليونيني ، ٢/١٤٧-١٤٨

التتري دمشق ، فرض على أهلها مبالغ كبيرة ، ورسماً على كل طائفة جماعـة مـن المغول ، ضربوا الناس وعصروهم ، وأذاقوهم الخزي والذل ، وكثر النهب والقتل في ضواحي دمشق ، وقد تحدث أبن البيساني عن محنة أهل الشام ، فقال: [1]

أتى الشام جيش كالرمـال عرمـرم فلم يبق أرضاً مـن نواحيـه ماجنـا
ولازم قومـاً فـي دمشـق بسـبيه ونهـب وقتـل ثـم أموالنـا جنـا

فأصبح أهل الشام بين عذابات متعددة ، جمعها قول الشاعر كمال الـدين ابـن قاضي شهبة (ت٧٢٦هـ) في بيتين من الشعر ، فقال :- [2]

رمتنا صروف الـدهر منهـا بسـبعة فما أحد منـا مـن السـبع سـالم
غــلاء وغــازان وغــزو وغــارة وغـدر وإغبـان وغـم مـلازم

لذلك لم تخرج سنة (٦٩١هـ) إلا وأهل دمشق في فقر مدقع ، فراح الشـاعر علاء الدين الوداعي (ت٧١٠هـ) ، يرثي لحاله المزرية ، فقال : -[3]

مــا لبســت الصــوف مــن عبــث لا ولا الخُلقــــان مجانــــا
إنـــه زي لمـــن هـــو مــــن فقــــراء الشــــيخ غازانـــا

إن ما حل بالشام لم يكن بفعل الغريب وحده ، بل وجد بعض ضعاف النفـوس ، ممن سخروا أنفسهم لخدمة أسيادهم المغول على حساب أبناء جلدتهم ، فزادوا النـاس بخساً ورهقاً ، ومنهم الشيخ نظام الدين محمود بن علي الشهابي الذي جاء مع غـازان أمير التتر، فأخذ نحو ثلاثين ألف دينار رشوة ، وهو يدعي التقى والـورع ، فكـان

---

[2] - كنز الدرر ، عبد الله الدواداري ،٩/ ٣٠.
[1] - السلوك ، المقريزي ، ١/ ٨٩٤.
[2] - المصدر نفسه ، ١/ ٩٠٤.

الشاعر الوداعي المقاوم صاحب الكلمة الجريئة بالمرصاد ، فكشف زيف تدينه ، وبين مثالبه، فقال :- (١)

أتى الشام مع غـازان شـيخ مسـلك	على يده تاب الـورى وتزهـدوا
تخلوا عن الأمـوال والأهـل جملـة	فمـا مـنهم إلا فقيـر مجـرد

ولم ينج جباة المال في دمشق ، الذين أرهقوا الناس ، وضيقوا عليهم منافذ الرزق، من سياط الشعراء الذين وصفوا هذه الجماعة بالكلاب ، بلا هي أحط من ذلك كما قال الشـاعر عز الدين عبد الغني الجوزي في معرض هجائهم :- (٢)

بلينـا بقـوم كـالكلاب أخسـة	علينا بغارات المخـاوف قـد شـنوا
هم الجن حقاً لـيس فـي ذاك ريبـة	ومع ذا فقـد والاهـم الجـن والـبن

لم يرفع الشاعر عقيرته بالنقد والتجريح من عبث ، أو لمجرد تصوير ما آلـت إليه حال الناس من سوء ، فتلك مهمة قاصرة ، وهو يريد أكثر من ذلـك ، يريـد أن يكون الصوت المقاوم المحرض على قتال المغول ، لطردهم من الأرض العربيـة ، ورفع الإصر عن الناس ، ويريد أن ينتصف لما لقي الناس من عنت ومشقة على يـد التتر ، والثأر منهم ، وسقايتهم من ذات الكـأس المـرة التـي اغتبـوا بهـا النـاس وصبحوهم، فالعين بالعين ، والسن بالسن ، والبادئ أظلم، كما يقال. لذلك نرى الشاعر جمال الدين أبا بكر قاضي عجلون يذكر الناس بأفعال المغول الذميمة، وينبه العيـون النائمة ، بصوت هامس أو مجلجل ، في السر والعلن ، ولسان حاله يقول: أنحتاج إلى ما هو أفظع من هذه المجازر ، لتغلي ضمائرنا ، وتجـري الـدماء فـي عروقنـا ، ونستشاط غضباً ، ونستيقظ من غفوتنا وأحلامنا السعيدة ، إن بقي فسحة للحلم ، ولـم الصمت والتسليم بالأمر الواقع ، والشيخ يذبح ، والطفل يقتل ، والمحصـنة تفضـح ،

(٣)- النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ،١٢٦/٨.
(١) - المصدر نفسه ، ١٢٦/٨

والمقدسات تحرق وتهدم ، أسئلة كثيرة وردت في نص الشاعر من باب تذكير الغُيـر على العزة والكرامة والشرف ، يقول الشاعر الداعي إلى الثأر والانتقام :- [1]

أشـفوا صـدوركم إن كنـتم غُيـراً ... علــى نســائكم يــا قــوم وادكــروا
كم من عجوز ومن شـيخ ومكتهـل ... ومــن فتــاة نماهــا الحســن والخفــر
وذات بعــل مخبــأة مخــدرة ... من دونها تضرب الأستار وقـد أسـروا
ومطفل أثكلـوا وجـداً بـوا حـدها ... وحامل أجهضـت خوفـاً وقـد ذكـروا
وكم أراقوا وكم ساقوا وكـم هتكـوا ... وكم ثملـوا بمـا نـالوا وكـم فجـروا

ألا تكفي هذه الصور المقززة التي ساقها الشاعر، للنهوض للحرب، للثأر للشرف المهدور، والعرض المهتوك والدم المسفوك، والأرض المستباحة ؟

إن الشاعر يدعو بقوة وجرأة إلى حرب ضروس ليس حبـاً بـالحرب، ونشـوة بعقابيلها وويلاتها، إنما هي فعل من جنس العمل، إنها نار لظى تبيد الشرك، وتمحـق الظلم والطغيان، وقد توسم خيراً بأبناء قومه بعد انتصارهم على المغول فـي وقعـة المرج سنة (٧٢٠هـ)، فراح مدفوعاً بزهوة النصر ينادي أصحاب الحمية والرجولة ، من يترجى فيهم الخير ، من عرفوا برفض الذل والضيم ، أيها الأبطال إنها حـربكم حرب العز والفخار ، هبوا لخوض غمارها ، واحذروا التغافل والكسـل ، والخطـر قائم بين جنباتكم ، بادروا لاستعادة الحق المغتصب ، والانتقام من الغاصب الغاشـم ، فهم من بدأ القتل ، وأباح الظلم والفساد ، يقول أبو بكر في هذه المعنى :- [2]

بكل غيـران أخـذ الـروح همتـه ... في غير نفس الـرديّ مالـه وطـر
أيرقد الليل في أمـن وفـي دعـة ... عن كيد قوم لهم في شـأنكم سـهر
إن تتركوهم فإن القوم مـا تركـوا ... يوماً عليكم ولا أبقـوا ولـم يـذروا

---

(٢)- كنز الدرر، عبد الله الدواداري ،٩٣/٩-١٠٠.
(١)- كنز الدرر عبد الله الدواداري ،٩٣/٩-١٠٠.

فمـا قعـادكم عـن أخـذ ثـأركم	هبوا سراعاً وخافوا اللوم يا غيـروا
وفوهم الحـرب إنصـافاً ومعدلـة	وحرروا نـوب الأيـام واعتبـروا
وسـارعوا واقتلـوهم إنهـم قتلـوا	وبادروا وأسـروهم مثلمـا أسـروا
وخربوا دارهـم واسـبوا حـريمهم	وأوقروا ضعف ما ادعوا وما وقروا
سجلاً بسجل فإن الـدهر ذونـوب	من ذا يغالب مـا يـأتي بـه القـدر

النص صريح في دعوته لقتال العدو وأعوانه (من السيس)، وهي طائفـة مـن ملوك الأرمن، وقفت إلى جانب المغول في حربهم مع العرب ، وقد اعتدت هذه الفئـة على الصالحية وأهلها ، وعاثت فيها فساداً وقتلاً ونهباً .

ودعوة الشاعر هنا لم تكن في إطارها الضيق، لأنه أدرك أنهـا حـرب دينيـة وحضارية وأخلاقية، لهذا كانت دعوة الشعراء إلى الجهاد صـوتاً يقصـد بـه نـداء المجاهدين في كل بقاع الأرض العربية والإسلامية ، الذين تقـاطروا لأداء واجـبهم، أمثال (قطز، وبيبرس، وقلاوون ، والمنصور محمد صاحب حمـاة، وحسـام الـدين لاجين، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل) وغيرهم، وقد خاضوا معارك مشرفة مـع المغل، كانت لهم الغلبة في كثير منها، كمعركة (عين جالوت سنة ٦٥٨هـ)، التي قتل فيها كتبغا نائب هولاكو ، وسنة (٦٥٩هـ) هزم الملك المنصور القائد المغولي (بيدار) قرب حمص ، وانتصر بيبرس على المغول في وقعة الفرات سنة (٦٧٠هـ)، وفـر أبغابن هولاكو سنة (٦٨٠هـ) أمام قلاوون في موقعة قرب حمص. إلا أن أهم نصر حققه العرب على المغول كما توحي الإشارات التاريخية ، والقصائد الشعرية ، ما تم في مرج الصفر - أو ما يعرف بوقعة شقحب (سنة ٧٠٢هـ)- التي قتل فيها عـدد كبير من المغول ، فلما بلغ الخبر التتر ، ظلوا ينوحون على قتلاهم مدة شهرين ، أما

قائدهم غازان لما سمع الخبر ، اغتم غيظاً، وفار الدم من منخريه ، وأشـرف علـى الهلاك ، وأنزل العقوبة بقادة جنده المهزومين . [١]

لقد ذاق العرب مر الهزيمة، إلا أن السحر انقلب على الساحر، فصحا العرب من غفوتهم ، وراحوا يكيلون الصاع صاعين للمغول ، وراح معهم الشعر يهلل ويصفق فرحاً لهذه الانتصارات العظيمة، التي مكنت العرب من إدراك ثأرهم ، وتلقين المغول درساً لا ينسى على مر الأيام والحجج.

البشرى بالنصر :

هذا اللون من الفرح ، الذي يمجد أبطال المسلمين الذين ردوا عن البلاد الغارات المدمرة، هذا اللون ينطق بصلابة العود والجرأة التي شعر بها المسلمون بعدما تمكنوا من هزيمة التتار لأول مرة . [٢]

وقد تهيأت للنصر برأي الشعراء مجموعة من العوامل أهمها : الإرادة الإلهية ، القائد المؤيد بنصر الله ، التصميم على الجهاد ضد المغول. وحول هذه الأفكار دارت معاني الشعراء، فجلهم رأى أن النصر من عند الله ، ولولا سابق حكمه وتدبيره، ودعم المجاهدين بالملائكة المردفين ، وتهيئة القائد المفوض بأمره، والصـمود فـي وجـه العدو، لما تحقق النصر على المغول، كما أشار أبو بكر قاضي عجلون، بقوله الـذي جمع فيه العناصر كلها في معرض حديثه عن معركة مرج الصفر سنة (٧٠٢هـ):[٣]

---

[١]- البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٢٦/١٤.

[١]- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د. أحمد بدوي ، ص ٥٥٤.

[٢] - كنز الدرر ، عبد الله الدواداري ،٩٣/٩-١٠٠

الله أكبـــر جـــاء النصـــر والظفـــر والحمـد لله هـذا كنـت انتظـر
وأبــرز القــدر المحتــوم بارئـــه سبحانه بيديـه النفـع والضـرر
وأقبـــل العســـكر المنصـــور يقدمـــه من الملائكة جند لـيس تنحصـر
ثـــاروا ســـراعاً إلـــى إدراك ثـــأرهم وهجروا في طلاب المجد وابتكروا
عصـــابة لـــم تـــزل بـــالحق ظـــاهرة في الحرب بالله والأملاك تنتصـر
لـــولا يثبتـــك الله العزيـــز بـــه لم يبق للناس لا سـمع ولا بصـر

هذا النصر (الملحمة) الذي قطع دابر المغول ، وأفشل ما دبـروا و مـامكروا، فانقلبوا خاسئين خاسرين ، لم يكن ليتحقق بعد ظلام اليأس ، وصمت القبور ، لو لـم يشد الله من أزر المقاتلين، ويمدهم بجند من عنده (الملائكة)، ويثبت أقـدامهم فـي أرض المعركة ، ويقذف الرعب في قلوب الغاصبين . إذن تكاملت في هذه المعركـة مقومات النصر فتم للعرب ما أرادوا بعد طول انتظار ، وانقطاع الرجاء، فقرت عيون الإسلام والمسلمين ، وعم الفرح والسرور أرجاء الكون ، ابتهاجاً بالنصر ، وتعبيـراً عن الحس الوطني العميق لدى الشاعر ، الذي عشق أرضه، وتعلق بهـا وبترابهـا ، ومقدساتها وظلالها ، وكل ذرة فيها ، ما يدل على أن موقف الشاعر الإيجابي هـذا ، هو التزام من لدنه بقضية أمته ، وأنه لم يكن مجرد صوت يغرد على فنن خاص به ، كما يوصف عادة شعر هذه المرحلة من أدبنا العربي ، إذ نعت بالسلبية والضـحالة ، والتلهي بالزخرف اللفظي والمعنوي ، بعيداً عن هموم الناس ومعاناتهم، فبعد كل نصر على التتر ، نرى الشاعر ينتشي طرباً وفرحاً ، وقد غمرتـه مشـاعر جياشـة مـن التفاؤل، والثقة بالنصر ، أزاحت المشاعر السلبية التي لفت النفوس بعبـاءة سـوداء ، خيم خلالها اليأس والقنوط، وعشش في كثير من القلوب والعقول ، يقول شمس الـدين

الطيبي المزهو بنصر العرب على المغول في واقعـة المـرج والشـامت بهـزيمتهم المرة:[1]

يا مرج صفر بيضـت الوجـوه كمـا فعلـت مـن قبـل بالإسـلام يؤتنـف
دارت علـيهم مـن الشـجعان دائـرة فمـا نجـا سـالم مـنهم وقـد رجفـوا
ونكسـوا مـنهم الأعـلام وانهزمـوا ونكصوهم علـى الأعقـاب فانقصـفوا
فروا من السيف ملعونين حيثما سـروا وقتلـوا فـي البرايـا حيثمـا ثقفـوا[2]

أدرك العرب ثأرهم من التتر، وأنزلوا بهم داهية مرة ، قوت صـوت الشـاعر المقاوم ، فراح يرسل إشارات التحدي والتهديد والوعيد كأي قائد عسكري ، وأطلقهـا صرخة مدوية في وجه المغول، إن عدتم عدنا، في إشارة منه لكل باغ يحاول التعدي على التراب الوطني – خاصة بلاد الشام – أن يفكر ألف مرة ، ويراجع نفسه الكـرة تلو الكرة ، قبل أن يقدم على أي عمل محفوف بالمخاطر ، ودونه التاريخ القديم فيـه عظة وعبرة ودروس مفيدة ، فليقرأه ، ليرى كم من غاز طامع جندل على أرضـها ، ومن نجا عاد يجر أذيال الخزي والعار. ويبدو أن التتار لم يحسنوا قراءة التاريخ الذي يظهر عظمة الشام وأبنائها ، وعزيمتهم وأنفتهم، وعدم قبولهم بالذل والهوان ، فغرهم بالدنيا الغرور ، فكان منهم التمادي والغي والضلال ، والعلو في الأرض فساداً ، فكان مصيرهم الهزيمة ، وقسيمهم الموت، لأنهم غير أكفاء للشام عروس المجد والحضارة، فباروا وهلكوا، وطارت الأخبار إلى قادتهم محملة بالخيبة، كما يقول الشاعر شـمس الدين الطيبي: [3]

---

[1] - الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ٣٦٢/٤-٣٦٤.

[2] - يشير الشاعر إلى تجرؤ العامة والغلمان على المغول حيث قتلوا الكثير مـنهم بعـد فـرارهم ، وغنموا عدة غنائم، وعمل العربان على خداعهم ، فضاعوا في البرية، فمات معظمهم من العطش .
- البداية والنهاية ، لابن كثير ٢٦/١٤.

[3]- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي،٤/ ٣٦٢- ٣٦٤.

يا برق بلـغ إلـى غـازان قصـتهم وصف فقصتهم من فـوق مـا تصـف
ما أنت كفء عروس الشـام تخطبهـا جهـلاً وأنـت إليهـا الهـائم الـدنف
قـد مـات قبلـك آبـاء بحسـرتها وكلهـم مغـرم مغـرى بهـا كلـف
وإن تعـودوا تعـد أسـيافنا لكـم ضـرباً إذا قابلتهـا ورضـت الحجـف
ذوقـوا وبـال تعـديكم وبغـيكُم في أمركم، ولكأس الخـزي فارتشـفوا

و راحت الرسالات تترى إلى غازان، تزف إليه خبر مصرع قادته العظام على يد جند الناصر محمد بن قلاوون، الذي وقف أهل الشام إلى جانبه ، يشدون من أزره في وقعة المرج، فقتل (قطلوشاه والنوين ، ويولاي ، وجوبا، وهيتـوم) ، وغيـرهم كثيرون، وليعلم أن الأرض العربية حرام ، وكذا الدم العربي والعرض، إن لها مـن يصونها ويحميها ، وهي عزيزة على الأعداء منيعة ، ومهرها غـال ، ثمنـه الـدم ورؤوس المعتدين ، كما أخبرنا بذلك الشاعر على بن سوادة الـذي قـال فـي هـذا المعنى:- [١]

ألا مـن مبلـغ غـازان قـولاً يحقـق عنـده الخبـر اليقينـا
هزمنـا قطلوشـاه يـوم حـرب وأردينـا بعزمتنـا النوينـا
واتبعنـا بـه يـولاي طـرداً وجوبـاً وهيتومـاً اللعينـا

وكان ظن المغول أن زحفهم نحو الشام تسلية ، وترويحاً عن الـنفس ، بقصـد التفرج ، والتمتع برياضها وحياضها ، فكانت أشأم فرجة عليهم ، كما قال علاء الدين الوداعي:- [٢]

ما كـان أشـأمها علـيهم فرجـة غُمـت وأبركهـا علـى الإسـلام

---

[١] أعلام النبلاء ، محمد الطباخ ،٥٤٨/٤- ٥٤٩.
[٢] الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ،٣٦٢/٤.

هذه الخسارة عجلت بموت القائد المغولي غازان ، ففرح الناس واستبشروا ، وعبروا عن شماتتهم، وتحدثوا عن مصيره الأسود في نار جهنم ، وكان قد أشيع غير مرة عن موته إلى أن جاءت هذه المعركة، فمات على أثرها غماً وكمداً ، يقول الشاعر علاء الدين الوداعي في خبر موته شامتاً : [١]

وكم جعل القصاد حياً وميتاً ... قراناً وأوحته شياطينهم وحيا
إلى أن قضى نحباً وصار إلى لظى ... وأصبح فيها لا يموت ولا يحيا

وسبق للسلطان قلاوون أن التقى التتار قرب حمص سنة (٦٨٠هـ)، وكانت معركة كبيرة ، عدها الشاعر ناصر الدين العسقلاني من أكبر الإنتصارات التي حققها العرب عبر تاريخ نضالهم الطويل ضد الغاصبين ، فرسم لنا لوحة صدامية لا أروع ولا أحلى، وهو في غمرة فرحه وإعجابه بالنصر العظيم، سجل فيها دقائق المعركة ، ولحظات النصر الرائعة، وصور هزيمة المغول لما رأوا قائدهم يفر مثخناً بالجراح يريد النجاة لنفسه ، ولم يحفل لأهله وجنده ، بعد أن جندل عدد من قادة المغول (كأبغا، وصمغا ، ومنكموتمر) وغيرهم ، يقول الشاعر ناصر الدين العسقلاني :- [٢]

هي النعمة العظمى هي النصرة الكبرى ... هي اللفظ والمعنى هي البشر والبشرى
هي الفتك بالأعداء والظفر الذي ... شفى الصدر من أبغا وقد أثلج الصدرا
وأمكن من صمغار حد سيوفنا ... فخر إلى الأذقان لا ساجداً شكراً
ونكس أعلاماً وفل كتائباً ... لمنكو تمر كالأسد في الحرب أو أضرى
فلما نجا منه وأركب طرفه ... تولى وخلى الأب والابن والصهرا

ويتكرر الحديث عن النصر والبشرى به ، لأن الشاعر ينشد من هذا الحدث ، التغني بأمجاد العرب وبطولاتهم قديمها وحديثها ، أولاً ليفتح أعين الناس على مجدهم

(٣) الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ،٣٦٢/٤.
(١) زبدة الفكرة، للأمير بيبرس ١٦٢/٩-١٦٤

التليد ، ويظهر قدرة العرب والمسلمين على دحر العدو ، وكف يد كل طاغ وبترها ، وما الغزو المغولي لأمتنا إلا مرحلة عابرة في حياتها ، ولذلك يوظف الشاعر المقاوم كلمته لبعث الحمية في النفوس ، واستنهاض الهمم لحرب المغـول، عنـدما يظهـر عجزهم وضعفهم، في أثناء حديثه عن هزيمتهم بعد كل معركة .وثانياً يريد الشـاعر من الكلام على النصر الشماتة بالتتر ، وتذكيرهم بهزائمهم المرة، للتأثير في المغول ، بتسخير الحديث كعامل نفسي لإحباطهم ، وبذر مشاعر الرعب والخوف في قلـوبهم ، لكسر شوكتهم ، والنيل من هيبتهم، وإذلالهم بالسيف تارة، والكلمة الجريئة التي لا يقل فعلها عن حد الصوارم تارة أخرى، وقد يشوب حديثه شيء من الحمية والسـخرية ، وقد يغلب عليه السخرية من العدو، إذ لا يني الشاعر عن تذكيرهم بالهزائم التي لحقت بهم على يد العرب والمسلمين، علها تكون درساً لهم ، فيكفوا عـن اسـتباحة الأرض العربية ، أو تكون عظة للمسلمين ترشدهم إلى خطر المغول المتربص بهم الـدوائر ، كيلا يجتروا أحلام النصر ، وينسوا الإعداد الدائم للقاء العدو ، يقول الشاعر ناصـر الدين العسقلاني: - [1]

قـــل للتتـــار العـــادمين عقـــولهم	نسيتم سيوف التـرك تهبـركم هبـراً [2]
أأنسيتم في عين جـالوت مـا جـرى	وفي العـين قـد أجـرى دمـاءكم نهـرا
أما كان فـي عـوم الفـرات إلـيكم	مقدمـة الجـيش الـذي عبـر البحـرا
أما كان فـي يـوم البلسـتين ثاويـاً	وأعيـنكم ترنـو إلـى نحـوه شـزرا

---

[1] - زبدة الفكرة للأمير بيبرس ٩/١٦٢-١٦٤

[2] - يذكر الشاعر المغول في الأبيات الشعرية بهزائمهم على يد الترك ، فيذكر موقعه عين جالوت سنة ٦٥٨هـ التي انتصر فيها قطز على المغول بعد أن علم بنية هولاكو في اجتياح مصر ، وكان قد أرسل له رسالة يطلب منه الاستسلام ، وينذره بسوء العافبة إن لم يستجب ، فلما وصلت الرسالة ، جمع قطز الأمراء وحضهم على قتال التتر، فاتفقوا على قتل الرسل ، والسير إلى الصالحية ، لنصـرة الاسـلام والمسلمين، واستنقاذ الشام من أيدي التتر ، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر بقيـادة كتبغـا وبيدا نائبي هولاكو فكسرتها، وألقى المظفر قطز خوذته عن رأسه ، وصرخ : وإسـلاماه ، وحمـل بنفسه على التتار ، فأيده الله بالنصر ، وأبلى الأمير بيبرس في هذه الوقعة بلاء حسناً ، ووقعة الفرات سنة ٦٧١هـ التي هزم فيها الظاهر ببيرس التتر بعدما عبر نهر الفـرات بسـفن الصـيد البدائيـة ،

وهكذا غدت أحاديث النصر هي السلوى ، وهي أحاديث السمر واللهو ، فحلكة الليل انجلت وحملت معها بذور الشر بعيداً ، ومثلها مظاهر الغم والهم ،وصور الرعب والموت، التي خلفها الغزو المغولي للبلاد العربية والإسلامية ، ليحل محلها الفرح والسرور، فطابت النفوس، وراقت الدنيا وزهت، كما قال الشاعر البزاز المنبجي: -(١)

بشائر طار بالإقبال طائرها لمثلها كانت الأيام تنتظر
سارت بأخبارها الركبان واقعة لم تحو أمثالها الأخبار والسير
وفي الليالي إذا عدت محاسنها أسمار في كل ناد ذكرها سمر
عم السرور بها كل النفوس فما للناس في لذة من بعدها وطر

لقد تغيرت نبرة الحديث عند الشاعر المقاوم ، وأصبحنا نرى فيها تحدياً وقوة ، وتفاؤلاً بغدٍ أفضل ، بعد أن محت سلسلة الانتصارات كوابيس الهزيمة المرة ، ونسخت من الذاكرة فعال المغول بالأرض والإنسان . وهذا يدل على التزام الشاعر بقضيته الوطنية والإنسانية ، ودفاعه الذي لا يفتر عن الحق المستلب ، والعدل الغائب، لهذا كان الشاعر المقاوم بداية يستصرخ الهمم ، ويستنجد بأصحاب الحول والطول ، ويحض على الجهاد في سبيل الله والوطن ، لإنقاذ البلاد والعباد من براثن المغول وبطشهم ، ولم يفته تنشيط الذاكرة العربية ، وتذكيرها بماضيها العريق ، والدعوة إلى ترك الخمول والتقاعس عن التصدي للمغول الذين خربوا ودمروا وقتلوا دون رحمة ، وأحالوا وجه الحضارة العربية الإسلامية النير إلى حالك مظلم .

ويذكرهم بيوم البلستين سنة ٦٧٥هـ حيث حقق العرب نصراً مؤزراً على التتار وأعوانهم من سلاجقة الروم .

السلوك المقريزي ٤٢٧/١-٤٣٣ .

(٣) - كنز الدرر ، عبد الله الدواداري، ٩٢/٩.

وهكذا استطاع أصحاب الصوت المقاوم الارتفاع فوق الجراح، فكانت لغتهم مملوءة بالتحدي والإباء ، والدعوة إلى طرد المغول وحربهم .

وإلى جانب الأصوات المقاومة هنالك نغمة أخرى عزفت على أوتار الضعف والاستسلام للهزيمة بشعر مأساوي باكٍ حزين ، يرثي لصورة الماضي السعيد ، فالنكبات المتلاحقة على قسوتها ، هزت ضمائر هذه الفئة ، وأصابت عقولهم بالجمود، ونفوسهم بالموت ، فتركت ندوباً يصعب أن تلتئم بين عشية وضحاها ، فأحس الشعراء بالحرقة تكوي قلوبهم ، والوحشة في نفوسهم ، والظلمة في عيونهم ، فاستسلموا للدموع ، ومشاعر الغربة والإحساس بالوحدة ، كما بينت النماذج الشعرية التي مثلت هذا التيار اليائس المستسلم للهزيمة والموت ،اللائذ بالبكاء والعويل.

الصوت الانهزامي :-

عكس الصوت الانهزامي أثر الغزو المغولي للأمتين العربية والإسلامية روح الهزيمة، لأن أصحابه مالوا إلى القبول بالأمر الواقع ، واجترار مرارة اليأس ، والتعايش مع أبعاد المحنة دون محاولة منهم لتجاوزها ، وتغيير هذا الواقع المر الأليم، أو السمو فوق الجراح والآلام .

لقد انغلق الشاعر على نفسه ، وراح يندب حظ أمته العاثر ، في صمت وبكاء مدمى، ونحيب وشكوى ، وصوت من التشنجات العاطفية ، والأحاسيس الساخطة المتبرمة دون فعل حقيقي ، بل مجرد صوت داخلي في جوف الشاعر الذي عزا ما حدث للدهر أو القدر . والشاعر هنا يرصد الحدث المأساة ، ويتفاعل معه ، ولكن بصورة سلبية لغلبة اليأس والقنوط، وكثرة الدموع التي حجبت الرؤية الصحيحة عن نظر الشاعر، ولم تمكنه من فهم أبعاد المأساة، والسبيل الأنجع للخروج منها ، لأن الدنيا اسودت في عيونه ، ولا مناص له من الكرب إلا الهروب بسمعه وبصره بعيداً ،

ورد الفعل السلبي هذه صورة من صور الهزيمة الداخلية التي نزلت بالشاعر المأزوم مادياً والمهزوم نفسياً فما فعله المغول بالناس والمدن أكبر من تحمل طاقـة البشـر ، لذلك شبت النار بقلب الشاعر ولا انطفاء لها ، ومات كل جميـل حولـه ، فمشـاهد الخراب والدمار والقتل عمت الأرجاء ، والشاعر عاجز لا حول له ولا قوة ، ومالـه إلا الدموع يلوذ بها ، والبكاء والعويل كالنساء والأطفال ، والقناعـة بالحـديث عـن المحنة بحرقة ممضة من خلال نظرة سوداوية ، اشترك معظـم أصـحاب الصـوت الانهزامي على تمثلها. فإسماعيل التنوخي شبت في صدره لظى النار ، فكوت أحشاءه ، إثر سقوط بغداد سنة(٦٥٦هـ) التي أصابها زلزال المغول ، فجرف في طريقه كل غال ونفيس، كما قال الشاعر التنوخي : -[١]

يا نار قلبي مـن نـار لحـرب وغـى	شبت عليه ووافى الريـع إعصـار
وكـم حـدود أقيمـت فـي سـيوفهم	على الرقـاب وحطـت فيـه أوزار

لقد غيب وجه بغداد الحضاري ، وبدل بالخراب والدمار ، وأحرقت المسـاجد، وهدمت منارات العلم والإيمان ، وحل محلها الشرك والضلال ، ولشد ما كان ينغص على الشاعر ضياع هبة الدين، وقد شغلت هذه المسألة بال معظم الشعراء ، فوصـموا المغول بالكفر والإلحاد، وتنادوا لشد أزر الدين ، وصونه وحمايته من عبث العابثين ، كما جاء على لسان شمس الدين الكوفي، الذي هاله تفوق الشر على الخير، وانتصـار الكفر على الإيمان ،فقال :- [٢]

ربع الهدايـة أضـحى بعـد بعـدهم	معطـلاً ودم الإسـلام منسـفك
والشـرك منجبـر والملـك منكسـر	والحـق مسـتتر والسـتر منهتـك

---

[١]- شذرات الذهب ، ابن الحنبلي ، ٢٧١/٥-٢٧٢

[١]عيون التاريخ ، محمد الكتبي ،١٣٧/٢٠

لهذا كله راح الشعراء يعبرون عن مشاعرهم الجياشـة تجـاه مـدنهم وقـراهم وأهلهم، بشعور وطني صادق ونبيل ، دلت عليه نبرة الحنين إلى الماضي السـعيد ، وتذكر الأيام الخوالي التي عفى عليها الموت، فمحا معه مـآثر البطولـة، الشـجاعة والكرم والكرام ، والعلم والعلماء ، فلم يجد الشاعر أمام هذا كله سوى الدموع مسعفاً، وهو يدرك عجزه الذي يدفعه إلى الإحساس بالقهر والفشل والإحباط والتعلل بمشـاعر الحزن والأسى ، وربما تمنى الموت عله يكون مخرجاً للشاعر مـن حالـة اليـأس ، فالعزيمة خانته ، وقواه خارت ، وحركته شلت ، ولم يبق إلا الشكوى ، والإحسـاس بالمرارة والحيرة ، والدموع يذرفها على فراق الأحبة ، يقول الشاعر شـمس الـدين الكوفي بعد نكبة بغداد:- [١]

بانوا ولـي أدمـع فـي الخـد تشـتبك	ولوعة في مجـال الصـدر تعتـرك
عـز اللقـاء وضـاقت دونـه حيلـي	فالقلب فـي أمـره حيـران مرتبـك
أروم صــبراً وقلبــي لا يطــاوعني	وكيف ينهض من قد خانـه الـورك

اغرورقت عينا الشاعر بالدموع من ألم الحشا، وألم العجز عن الفعل ، وما حيلة العاجز غير الدمع يذرفه إن عز الصبر؟ ويبدو أن الشـعراء بعـد الحـدث المفجـع استعذبوا البكاء والألم ، وأنات العذاب ، والتأوه ، ووجدوا فيها راحة لفؤادهم الجريح، وعملوا على الترويج للدموع والبكاء بدل الفعل ، وطلبوا عدم لوم الشاعر، أو عذلـه لاصطناعه البكاء على الدار والأهل، بحجة أن هذه الدموع ليست ماء يجـري فـي المآقي، إنها دماء ، إنها ذوب روح الشاعر المكلوم ، كما أخبرنا الشاعر شمس الدين الكوفي ، بقوله : - [٢]

---

[٢] عيون التاريخ ، محمد الكتبي ، ١٣٧/٢٠.
[١] عيون التاريخ ، محمد الكتبي ، ١٣٧/٢٠.

لا تحسبوا الدمع ماء في الخدود جـرى وإنما هي روح الصـب ينكسـب

وللكوفي قصيدة طويلة حشد فيها من مفردات الحرقة والألم الحـاد ، والشـعور باليأس ، الكثير الكثير ، بعدما رأى بأم عينه ما حل بالأحباب والصحاب مـن فرقـة وموت ، فنجد فيها دموعاً مسفوحة على الخد بغـزارة ، ووجعـاً ممضـاً ، وشـوقاً للأحباب ، واستنطاقاً للربوع .

وقد بنى هذه القصيدة على غرار إيقاع قصيدة (أبي نواس) الميميـة الـروي ، ذات الطابع الحكمي الوعظي ، وفيها يطلب الشاعر التقصير عن لومه وتقريعه، إذ لا حيلة له إلا الدموع يذرفها ، والألم يبوح به ، والشوق والحنين للخلان ، وقد أفاد فـي هذه القصيدة من الشعر الغزلي ودلالات معانيه، وطرائق تعبير أصحاب هذا الفن عن ألمهم وشوقهم للمحبوب ، وذكر الدموع والأسقام ، والعذل والعذال ، ولم ينس حظـه من الصنعة مع أن الموقف لا يتطلب اللجوء إلى الصنعة – ولا سيما الجناس الذي لم يتجن على المعنى في الشاهد لقدرة الشاعر على التعبير ، وحسن توظيف الجنـاس ـ دون تكلف ، يقول الكوفي :- [1]

عنـــدي لأجـــل فـــراقكم آلام فـــإلام أعـــذل فـــيكم وألام
مـــن كـــان مثلـــي للحبيـــب مفارقـــاً لا تعـــذلوه فـــالكلام كـــلام
نعم المســاعد دمعــي الجــاري علــي خـــدي إلا أنـــه نهـــام

والبكاء نوعان واحد سلبي ، وهو الندب والتفجع والحزن الشديد المملوء باليأس، وآخر إيجابي ، وإن كان بدوره تعبيراً عن الحزن ، ولكنه ممـزوج بـروح الـدعوة للمقاومة، وتحدي الصعاب ، من خلال الدموع ومشاعر الإحساس بالمعاناة .

---

[1]- فوات الوفيات، شاكر الكتبي ،١/٤٩٧

ويغلب على شعر مرحلة الغزو المغولي ، الضرب الأول من أنواع البكاء ، فلم يكن شمس الدين الكوفي نسيج وحده في هذا المضمار ، فكل لسان تناول هذا الموضوع لم يستطع الخروج من شرنقة الحزن ، فجريمة المغول تبكي الحجر وتدميه، فما عساه يصنع (شمس الدين الكوفي ، وابن أبي الحديد، وعلي بن عبد الله الغزولي، وسعدي الشيرازي ، وإسماعيل التنوخي) وغيرهم ، وقد فارقوا الأحبة ، وخلفوا وحيدين في الديار الموحشة التي غدت بلقعاً خاوية على عروشها ، يعشش فيها الموت، إنه مشهد يفطر القلب ، ويدمي العين ، ولولا نعمة البكاء ، لما استطاع الشاعر صبراً على الأسى ، ولربما فاضت روحه قبل أوانها ، كما قال ابن أبي الحديد: - [1]

لولا البكاء لما قدرت على الأسى	إن البكاء معونة الملحاح
لو أن روحاً فارقت من شدة	لوجدت روحي أسرع الأرواح

وعبثاً يحاول الشاعر منع دمعه، أنه بلسم لجراحه، وهو الملوع الفؤاد لما أصاب أهله وبلاده، كما قال الشاعر علي بن عبد الله الغزولي أثر نكبة دمشق سنة (٨٠٣هـ) [2]

لي أنة لي حرقة لي لهفة	لي حسرة لي لوعة وكفاني

ماذا بقي بعد ليذكره الشاعر ، مما يجعل الدمع يتفجر من المحاجر والأحداق تفجراً ، وليسح على الوجنات أشد من ماء الغمام ، وليندب من كانوا بصره وسمعه،

---

[2] عيون التواريخ ، محمد الكتبي ، ١٣٨/٢٠.
[1] مطالع البدور ، عبد الله الغزولي ، ٣٠٢/٢

ومهجة قلبه، والآن صار حاله كحال المتنبي في واحدة من حالات يأسه وتشـاؤمه، إذ يقول: (١)

وما انتفاع أخي الـدنيا بنـاظره إذا استوت عنده الأنـوار والظلـم

ولقد جرب سعدي الشيرازي حبس دموعه ،ففشل ، لأن مصاب بغداد أمـرض قلبه وجسده ، وتكاثرت الأوصاب عليه ، حتى عجز كل مداوٍ عن برئها ، وعجز معه الصبر ، ولم يفده النصح ، فعاديات الدهر أخنت على بغداد ، وبات الشاعر أسير الهم والنصب والوصب ، وهو الرقيق القلب ، المرهف الحس ، كما أحب أن يتحدث عـن نفسه بقوله :- (٢)

ولا سيما قلبـي رقيـق زجاجـه وممتنع وصل الزجاج لدى الكسر

إن رقة قلب الشاعر جعلت الدمع يجري من عينيه رغماً عنه ، ودفعه اليأس إلى تمني الموت في ذات النص أكثر من مرة ، فقال : - (٣)

حبست بجفني المـدامع لا تجـري فلما طغى الماء استطال على السـكر
نسيم صـبا بغـداد بعـد خرابهـا تمنيت لو كانت تمـر علـى قبـري
لأن هلاك النفس عند أولي النهـى أحب له من عيش منقـبض الصـدر
زجرت طبيباً جس نبضـي مـداوياً إليك فما شكواي من مـرض تبـري
ياناصحي بالصبر دعني وزفرتـي أموضع صبر والكبود علـى الجمـر

استنفد الشاعر كل طاقته ولم يبق لديه شيء ، فالطبيب فشل في شفائه ، والصبر منه نفد ، ففقد كل بارقة أمل في الحياة التي نغصت عليه عيشه ، فراح يتمنى المـوت

---

(٢) ديوان المتنبي ، ٣٦٧/٣.
(٣) المتنبي وسعدي ،د. حسين محفوظ ٧٧.
(٤) المتنبي وسعدي ،د. حسين محفوظ ، ص٧٤.

لا حباً به، إنما هي الخلاصة التي اهتدى إليها الشاعر بعقلـه الحصـيف ،وبصـيرته النافذة ، فما أحلى الحياة إن لم يتبعها الموت ، يقول الشيرازي :- (١)

خليلـي مـا أحلـى الحيـاة حقيقـة وأطيبها لولا الممـات علـى الإثـر

ونسمع صوتاً انهزامياً آخر ، إنه صوت الشاعر تقي الدين إسـماعيل التنـوخي الذي تمنى بدوره الموت بعد زوال الخلافة العباسية ، ودمار بغداد حاضرتها ، فقـال بنبرة سوداوية متشائمة :- (٢)

لم يبق للـدين والـدنيا وقـد ذهبـوا شوق لمجد وقد بـانوا وقـد بـاروا
ما كنت آمل أن أبقـى وقـد ذهبـوا لكن أتى دون مـا أختـار أقـدار

إن هذه المواقف السلبية هي مزيج من المشاعر اليائسة التي اختلطت بالـدمع ، ومظاهر الأسى والشجا والحزن العميق، والإحساس الموجع بقرص الغربة والوحشة والوحدة القاتلة ، التي عكستها نبرة الشاعر شمس الدين الكوفي الانهزاميـة ، الـذي اكتفى ببكاء بغداد المثخنة بالجراح، فجاء شعره غنياً بالدلالات المأساوية، التي تبعـث في النفس الإحساس بالإحباط والقهر ، والموت والعجز ، والبؤس والألـم ، والقلـق والضياع ، على مستقبل الأمة ، والتشاؤم من الدنيا بأسرها ، وقد سخر لهذا الغـرض في واحدة من انهزامياته ، واو الندبة ، لتمنح النص الشعري جواً من الكآبة والإيقـاع الحزين ،فقال في وصف حاله البائسة:- (٣)

وا لهفتي وا وحـدتي وا حيرتـي وا وحشتي وا حـر قلبـي العـاني
مالـ ـي أنيس بعدكم غير البكـا والنــوح والحســرات والأحــزان

---

(١) المتنبي وسعدي ،د. حسين محفوظ ص٧٥.
(٢) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ،٥٢/٧.
(١) فوات الوفيات ، محمد شاكر الكتبي ،٥٠٥/١ .

إنه واحد من الأصوات المستسلمة لليأس والهزيمة، عبر عن ضعف الشاعر، وأزمته النفسية والفكرية إزاء الحدث، لذلك نراه يعاني من مشاعر الغربة، وأولها الإحساس بالوحدة والحيرة والوحشة في الربوع القاحلة، التي يزيده منظرها عنتاً ورهقاً، ويدفعه لرد فعل سلبي أيضاً، يتمثل بالدعوة للرحيل من هذه الديار بدل أن يبدي تعلقاً أشد بها، يقول الكوفي :- (١)

ما انتفاعي من بعدهم بوقوفي   في محل بال ورسم دريس

ويتساءل الشاعر تقي الدين التنوخي بمرارة عن جدوى الوقوف بأطلال الديار بعد زوالها ، بل نراه يحض على عدم الوقوف في جنباتها ، وتلك دعوة أخرى نشتم منها رائحة التخاذل والاستسلام للهزيمة ، فعوضاً عن الاتعاظ بما حصل ، والدعوة إلى الصمود ، والتمسك بالتراب الوطني والدفاع عنه وعن أهله ، نرى الشاعر يدعو إلى نبذ الماضي وراء الظهر، والرضا بالأمر الواقع ، يقول الشاعر :- (٢)

يا زائرين إلى الزوراء لا تغدوا   فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت   به المعالم قد عفّاه إقفار

ومن باب الموضوعية، حتى لا ننكر حق الشاعر في توظيف الوسيلة التي يراها مناسبة للتعبير عن معاناته، حتى لا نقلل من أهمية المشاعر والأحاسيس العاطفية ، نقول إن في بكائهم وتشنجهم، وحزنهم على مدنهم وذويهم ، بعداً وطنياً ، فالمشاعر الحزينة وإن كانت صادقة تعبر عادة عن هيام المرء بمن يحب ، أشخصاً كان أم وطناً والشوق والحنين إليه وللأيام الخوالي، التي قضاها تحت أفيائه وظلاله، وعند جداوله، وما الشعور بالغربة المكانية أو النفسية، والإحساس بالقلق والعجز، وتمنى الموت إلا لأن الصبر على فراق الأحبة أمر لا يطاق ، فلا أقل إذن من التعلل بذكرى الماضي

---

(٢) عيون التواريخ ، محمد الكتبي ، ١٣٨/٢٠.
(٣) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ،٧/ ٥٢.

السعيد ، والسؤال الذي يتردد على الشفاه عن الأصحاب والخلان ، ومهـوى الفـؤاد، وملعب الصغار ، والبقاء على العهد والوفاء لثرى الأرض التي درج عليهـا ، ونمـا وترعرع في ربوعها ، وهو يدرك أن ما فات لن يعود ثانية .

من هنا لا تستغرب من الشاعر شمس الدين الكوفي وغيره لغة الإحساس بالفقد والسؤال الحائر المرير ، ترى أيعود ذاك الماضي الرغيد ؟ سؤال يطرحـه الشـاعر على نفسه فيقول (١)

أترى تعود الـدار تجمعنـا كمـا	كنــا بكــل مســــرة وتهـــــان
هيهات قد عـز اللقـاء وسـددت	طــرق المــزار طــوارق الحــدثان

الشاعر يتملكه شعور باليأس المطلق من عودة هذا الماضي ، وأنى له أن يعود ، وقد أخنى عليه الموت كما أخنى على لبد، وخاف الشاعر وحيداً تعيساً يتجرع كؤوس الذل مترعة، وقد لفته الأسقام والهموم ، ولا دواء لدائه ، سؤال يكثر الشاعر الكـوفي ذكره بحرقة، فهل من مجيب! :- (٢)

أيـــن ســـارت حـــداة العـــيس	بحبيبــــي وواحــــدي وأنيســــي
جرعــوني مــن الفــراق كؤوســاً	مــرة مــا أمرّهــا مــن كــؤوس
فتبــــدلت بعــــد عــــز بــــذل	وتبــدلت مــن نعــيم ببــؤس
وشــــرابي دمعــــي وراوي حزنــــي	وســقامي مــن بعــدهم ملبوســي
أنا أشـكو أمـراض حـزن وشـوق	كــلّ عنهــا عــلاج جــالينوس

لقد ضاقت الدنيا بما رحبت على الشاعر ، وأظلمت الدنيا في عينيـه ، وهجـر مقلتيه لذيذ المنام، ولم يعد الكرى يعرف طريقاً لعينيه ، فالموت والبلى غيّب الأحبة ،

---

(١)- فوات الوفيات، محمد شاكر الكتبي،١/ ١٥٢
(٢)- عيون التواريخ ، محمد الكتبي ،١٣٨/٢٠

وترك الشاعر لدمعه تارة، ولشوقه لأهله تارة أخرى ، يتسقط أخبارهم ، ليعلمهم أنه باق على عهده بهم وفي لهم، والموت أروح عنده من الغدر أو الخيانة ، وخفر الذمـة والعهد ، ولكنها الأيام التي فرقت شملهم ، ورمت بهم ريح النوى بعيـداً ، فانقطعـت أخبارهم ، وضاعت رسائلهم وكتبهم ، حتى طيفهم لم يعد يزور الشاعر في منامـه ، كما أخبرنا الشاعر شمس الدين الكوفي في واحدة من بكائياته ، يقول :- [1]

وحياتكم إنـي علـى عهـد الهـوى	بـــاق ولـــم يخفـــر لـــدي ذمـــام
فـــدمي حـــلال إن أردت ســـواكم	والعـــيش بعـــدكم علـــي حـــرام
يـا غـائبين وفـي الفـؤاد لبعـدهم	نـــار لهـــا بـــين الضـــلوع ضـــرام
لا كتـــبكم تـــأتي ولا أخبـــاركم	تـــروى ولا تـــدنيكم الأحـــلام

إنها القطيعة وأي قطيعة ، جعلت الكثير من الشعراء في هذه المرحلة يصطنعون حواراً مباشراً بينهم وبين مدنهم المنكوبة ، وربما توهم الشاعر- على عـادة الشـعر الجاهلي – شخصاً يقف على الأطلال المدمرة ، يبثها رسالة شوق ومحبة مـن فـؤاد الشاعر الملذع ، أي إن ما يعرف بالرسالة الشعرية، قد شاع في هذا العصر ، ينقلهـا الصاحب المتوهم محملة بأنات المعذبين وأشواقهم إلى المرسل إليه ، وهـي بـالطبع المدن المدمرة، ليعود من جديد بنبأ يزفه للشاعر المنتظر بلهفه وشوق سماع ما يفرح قلبه ، وأن كان يعلم قبل أن لن يحظى بسماع ما يثلج صدره ، لكنه الحـب الخالـد، والعشق الأبدي لبغداد دار السلام ، صرح المجد والحضارة ، منارة العلم والإيمـان، التي أصبحت على حين غرة أثراً بعد عين، تفوح منها رائحة الموت والعفن ، بعـدما استباحها المغول أعداء الحضارة والإنسانية، هذا الحب الذي حوله الشاعر من بـوح مناجاة داخلية، تصطرع داخل نفسه وعقله، إلى بوح خارجي ممزوج بالحرقة والألـم المبرح ، بعد أن ضاق صدر الشاعر به، فراح يجري كلاماً مدمى، كما جـاء علـى

---

[1]- فوات الوفيات، محمد شاكر الكتبي، ٤٩٧/١- ٤٩٨

لسان الشاعر محمد بن الحسين المعروف بـابن الشـرى، فـي نكبـة بغـداد سـنة (٦٥٦هـ)[1]، الذي بني نصه على روي الميم على غرار إيقاع قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، يقول:

يا صاحبي بلـغ- هـديت – رسـالة	مــن مــدنف أودت بــه الأســقام
وانزل علـى بغـداد وانـدب أهلهـا	دار الســلام وقــل عليــك ســلام
فانشــد هنــاك وقــل بقلــب والــه	يــا دار مــا صــنعت بــك الأيــام
وتمشى فـي تلـك الرسـوم ونادهـا	لــم يبــق فيــك بشاشــة تســتام
ويـــــلاه يا بغــداد أورثت الحشـا	نــاراً لهــا بــين الضــلوع ضــرام

كثيرة النماذج الانفعالية، التي انفعل أصحابها بالحدث، من خلال ذرف الـدموع وندب الأطلال، والتشوق للماضي البعيد، بنبرة مملوءة باليأس والشـجن، والأسـلوب الانفعالي العاطفي الذي أظهر الشاعر فيه عجزه وضعفه قولاً وفعـلاً، فبـدا صـوته هزيلاً متهدجاً ضعيفاً منكسراً، تفوح منه رائحة التخاذل والجبن والتقاعس عن مواجهة الأزمة، التي فاقت تصور هذه الطبقة من الشعراء، فأصابها الصمت والوجوم ، وغلب على موقفها الحيرة والبكاء على الديار واستنطاقها، وبعث رسالات الشـوق والحنـين للأهل والخلان.

خاتمة البحث:

ترك الغزو المغولي للعالم الإسلامي بصمات واضحة المعالم في أدبنا العربـي ثقافياً واجتماعياً ونفسياً، وقد واكب الشعراء حدث الفاجعة، وأبلوا فيه بلاء حسناً ولـم يقتصر دورهم على تسجيل الوقائع ، لأن الأدب نشاط إنساني ، يقاوم عوامل الضعف

[1]- عنوان التواريخ ، محمد الكتبي ، ٢٠/١٤٠-١٤١

والخور التي تلم بالنفس الإنسانية في لحظات الإنكسار ، وليس هناك عمل جـاد فـي تاريخ الإنسان ، يمكنه أن يخلو من هذه السمة(المقاومة) ، لأن هذا العمل يفقده فكـرة الصراع بين الإنسان والكون سواء أتمثل هذا الكون في الوجود الطبيعي أم في النسيج البشري[1] .

لهذا حمل الشعراء عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة العدو، وتحدثوا عن فرقـة المسلمين في أثناء اجتياح المغول للبلاد العربية ، ونبهوا إلى مـا آلـت إليـه حـال المسلمين من ضعف ، ودعوا إلى نبذ الكسل ، ونادوا بالانتقام من المغول ، وصوروا معاناة الناس وألمهم ، وأثاروا في النفوس الحمية بالبحث عن بطولات خارقـة لهـذا القائد أو ذاك ، ووصفوا المعارك وسقوط الحصون والمدن ، وغالوا في الحديث عـن قوة العدو وشدة بأسه ، وقوة جيش المسلمين، وذكروا أسماء الأبطال الذين شاركوا في خوض غمار هذه الحروب (أعرباً كانوا أم مغولاً) ، وتناولوا أدوات الحرب (المنجنيق –العرّدات – النبال – السهام والسيوف، الدروع، والنفط والمكاحل، وغيرها)، وأثنـوا على المنافحين المدافعين عن الحق العربي ، فتحدثوا عن شجاعتهم وتضحيتهم، وبذلهم وسماحتهم، وتدينهم وصبرهم، وإيمانهم بنصر الله وتأييده لهم . وقد تشابهت صـور المدح في معانيها ودلالاتها ، وهذا أمر طبيعي لأن قيم الحق والعدل والخير يجب أن يتحلى بها البطل المخلص أو(المنقذ)، لذلك يعد شعر هذه المرحلة وثيقة تاريخية مهمة لمن يود معرفة الغزو المغولي وأحداثه على الصعيدين الحربي والأدبي. ولـم يـنس الشعراء هجاء المغول، ووصف أخلاقهم وفعالهم الشنيعة، (النفاق – الغدر – الجـبن – الفرار من المعركة – عدم الوفاء ونقض العهود)، والقصد من وراء ذلك تحـذير المسلمين من فساد أخلاقهم، وإظهارهم بمظهر الضعف والذلة. ولم ينج المتقاعسـون من لسان الشعراء، فتعرضوا للسخرية والتهكم ، وأظهر الشـعراء ضـعف نفوسـهم وتخاذلهم، وجريهم وراء أطماع شخصية ومادية. وبكى الشـعراء بحرقـة وجـزع

[1]- أدب المقاومة ، د. غالي شكري ،ص٧ .

شديدين من قضى نحبه من الأبطال والقادة العظام، وأبدوا التحسر لفقدهم، وغياب مآثرهم الجليلة. وكان للمدن نصيب من هذه الدموع بعد أن لحقها الخراب والدمار على يد شذاذ الآفاق من المغل، في سعي من الشاعر لبيان هول المصاب، لتحريض الناس على الجهاد، وتحرير الأرض والإنسان من ذل العبودية .

ومن الناحية الاجتماعية، تحدث الشعر عن تراجع الوضع الاقتصادي، وانتشار الفقر والجوع ، وميل بعض الناس إلى الاستجداء وطلاب العطاء من الأمراء والأغنياء، وانتشار المفاسد الأخلاقية التي أسهم المغول في تفشيها بين الناس تلبية لإغراضهم الدنيئة .

لقد أججت هذه المأساة نار الحقد والبغض في النفوس ضد المغول ، فجاء صادق العاطفة، لأنه عبر بصدق وإخلاص عن رغبة ملحة في طرد العدو من بلاد العرب والمسلمين ، واستعادة الحق المغتصب ، وتحرير المقدسات من براثن المغول. وتميز أيضاً شعر هذه المرحلة بالجدية والالتزام، لذلك حاول الشعراء الارتقاء بسوية شعرهم لغةً وأسلوباً، وهو تجسيد لمعاناة الشعراء، الذين لم يكن شعرهم تقليداً لنصوص سابقة، وإن استوحى بعض الشعراء معانيهم من القدماء كأبي تمام والشريف الرضي وأبي نواس ، والمتنبي وغيرهم، وإن تسرب إلى لغتهم الشعرية بعض المفردات الأجنبية بتأثير من الاحتكاك بالمغول (الأفرنج – التتر – الترك– جنكي– الصليب – الشرك – جالينوس – المغول – خاقان – البرنس – الكونت – السناجق)، وغيرها مما فشا في الشعر إثر الغزو المغولي ، لأن الشاعر كان شاهد عيان للحدث، أثرت فيه النكبة بأبعادها ونتائجها، التي جعلتنا ـ ونحن نطالع شعرهم ـ نحس بصدق اللغة وحرارة العاطفة، يحدوهم إلى ذلك شعور ديني عارم، وحب عميق لأرضهم السليبة، وثغورهم

المحتلة، و إحساس بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم لأنهـم صـوت الحـق، ولسان الخلق . [١]

ونلاحظ في شعر هذه المرحلة خضوعها لمستلزمات الذوق الفني السائد في ذلك العصر، الذي غلب عليه المبالغة الشديدة، والمحسنات اللفظية من البـديع والجنـاس والطباق، إلا أنه تميز بالحماس الشديد ، والانفعالات الحادة ، والتحلي بالصبغة الدينية في القصائد، المتصلة بالمعارك خاصة، ولقد أدى هذا الحماس الديني، وغرق الشاعر في المخاطر والمعارك الدائرة ،إلى اختفاء شخصية الشاعر، وتركيزه الشـديد علـى الملوك والسلاطين، الذين يحققون الأمجاد والانتصارات دفاعاً عن الوطن والدين .

لذلك يعد شعر هذه المرحلة وثيقة تاريخية مهمة لمن يود معرفة الغزو المغـولي وأحداثه على الصعيدين الحربي والأدبي.

---

[١]- الأدب في بلاد الشام ، د . عمر موسى باشا ، ص٤٨١ –٤٨٢.

المصادر والمراجع

١- الأدب في بلاد الشام، د. عمر موسى باشا، دمشق ط٢، ١٩٧٢.

٢- أدب المقاومة، د. غالي شكري، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.

٣- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، ج ٤، ط ١، ١٩٢٥.

٤- الإنسان في المرآة، كلايد كلوكهن، ترجمة د. شاكر سليم، بغداد، ١٩٦٤.

٥- البداية والنهاية في التاريخ، عماد الدين إسماعيل (ابن كثير)، مطبعة السعادة، القـاهرة، ١٩٣٢.

٦- جدل الشعر والثورة، نزيه أبو نضال، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.

٧- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، د. أحمد بـدوي، القـاهرة، ١٩٧٩.

٨- دراسات في الواقعية الأوروبية، لوكاتش، من مقدمة للمترجم أمير إسكندر، مصر دون تاريخ.

٩- ديوان الشرف الأنصاري، تحقيق د. عمر موسى باشا، مجمـع اللغـة العربيـة دمشق، ١٩٦٧.

١٠- ديوان الشريف الرضي، تحقيق د.محمود مصطفى حلاوي،لبنان،ط١، ١٩٩٩م.

١١- ديوان ابن حمديس الصقلي، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٠م.

١٢- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، شرح سوهام المصري، مراجعة د. ياسين الأيـوبي، ط١، ١٩٩٨.

١٣- ديوان علي بن المقرب، تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو، الأحساء، ١٩٦٣.

١٤- ديوان المتنبي بشرح العكبري، ضبط مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، لبنان، دون ١تاريخ.

١٥- الذيل على الروضتين، تراجم رجال القرن السادس والسابع، أبو محمد بن عبـد الرحمن المعروف بأبي شامة المقدسي، نشر عزت العطار الحسيني، وتصـحيح محمد الكوثري، ١٣٦٦هـ.

١٦- ذيل مرآة الزمان، قطب الدين موسى اليونيني، طبع دائرة المعارف العثمانيـة، الهند ج٢، ١٩٥٥.

١٧- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، للقاضي محيي الدين بن عبد الطـاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦.

١٨- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، للأمير بيبرس ركن الـدين المنصـوري، مخطـوط، الجامعة الأردنية.

١٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد علي المقريزي، القاهرة، ١٩٣٤.

٢٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العمـاد الحنبلـي، القـاهرة، ١٣٥١.

٢١- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد، تحقيق محمـد أبـو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٩.

٢٢- عجائب المقدور في نوائب تيمور، أحمد بن عبد الله بن عربشاه،
تحقيق د. علي محمد عمر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٣-عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، بدر الدين محمـود العينـي، مخطـوط، دار الكتب المصرية.
٢٤- عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. فيصل السامر، ونبيلة عبـد المنعم داود، العراق، ١٩٨٠.
٢٥- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمـد بـن طباطبـا (ابـن الطقطقي)، نقحه محمد عوض إبراهيم وعلى الجارم، مصر، ١٩٣٨.
٢٦- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميـد، دون تاريخ.
٢٧- الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن بن أبي الكرم (ابن الأثير)، بيـروت، ١٩٦٦.
٢٨- كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر عبد الله بن أيبك، تحقيـق هـانس روبـرت رويمر، إصدار قسم الدراسات بالمعهد الألماني، القاهرة ١٩٦٠.
٢٩- المتنبي وسعدي، د. حسين علي محفوظ، طهران، ١٩٥٧.
٣٠- مطالع البدور في منازل السرور، علي بن عبـد الله الغزولـي، مصـر، ط١، ١٢٩٩.
٣١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، لبنان، ط١، ١٩٩٢.
٣٢- نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين البـابي الحلبـي الغـزي، حلـب ١٠٢٦.
٣٣- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دمشق ج٣، ١٩٥٣، ج٤، ١٩٥٨.[*]

---

[*] تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ٢٠٠٢/٩/١٩.